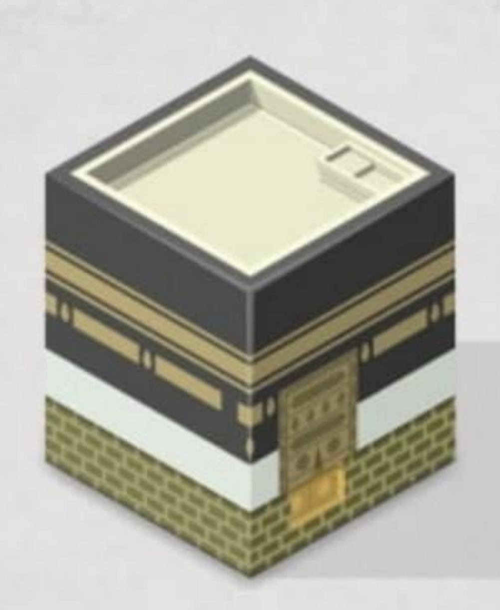


قراءة في رحاب نهج البلاغة والرؤى المعاصرة



محمد صادق السيد محمد رضا الخرسان

التوحيد

قراءة في رحاب نهج البلاغة والرؤى المعاصرة

محمد صادق السيد محمد رضا الخرسان



هوية الكتاب

الكتاب: التوحيد – قراءة في رحاب نهج البلاغة والرؤى المعاصرة

المؤلِّف: محمد صادق السيد محمد رضا الخرسان

الإخراج الفني: حسن البهادلي

الطبعة: الثالثة، عام ١٤٤٣ هـ ـ ٢٠٢١ م

العدد: ١٠٠٠

القطع: رقعي

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات



مقدمة الطبعة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الأمين وآله الطاهرين.

وبعد.. فإنَّ البحث حول «التوحيد» في ضوء نهج البلاغة، يكتسب أهميته من محور البحث ومصدره؛ إذ يهدف الباحث للتعرّف على أهم محاور العقيدة، وتقديم رؤية فكرية حوله، وبلورة نتائج ذلك، بقراءة متأملة في نصوص أحد المصادر المهمة للمعرفة الانسانية، بما يضيف قناة أمينة لفهم حقيقة التوحيد ومعطياته، في ظل تعدّدية الأفهام في الساحة الفكرية، بما يثير هواجس القلق من الابتعاد عن البوصلة، وتضييع الهدف، في زحمة الرؤى المعروضة، والأفكار المتعارضة، بين إفراطٍ وتفريطٍ، فكان التطرّف من نصيب الأطروحتين، وهو خطر عظيم يلزم تدارك أضراره، وتحجيم مساحة آثاره؛ وذلك عبر مراجعة فاحصة للعقائد ومصادرها، لتأمين عقيدة سليمة، ومعرفة صحيحة، تقوم على أسس الاستدلال العلمي في هذا المجال المهم، الذي يحدد موقف الانسان دنيوياً، ونجاته أُخروياً.

كما أنه يساعد على تنقية المجتمع من شوائب الأفكار، وإفرازات ردود الأفعال، التي انتشرت سريعاً -أفقياً وعمودياً-، بما يدعو

لدراسة الأسباب، ومعالجة النتائج، وتطويق الآثار السلبية لظاهرة التمرّد على دلالة العقل والفطرة، وما يقدِّمان من البراهين المتاحة كونياً للمتأملين، بما يُثبت لهم التوحيدَ من خلال اللازم؛ حيث يتضح لَمَنْ يتأمل في هذا النظام الكوني الدقيق العجيب -كقانون الجاذبية، أو البصمة الوراثية- بأنَّه لا بدّ من وجود الموجد الواحد لذلك، فينتقل من دقة الموجودات الى وجود الموجد الواحد؛ وذلك لاستحالة وجودها بأنفسها أو صدفة؛ حيث يمتنع ذلك عقلاً؛ لإدراكه استحالة وجود الأثر أو المعلول بدون المؤثر أو العلّة، فهل أوجدها سوى الله تعالى؟ وهو ما لم يثبت -علمياً-؛ إذ لم يُكشف عنه طيلة هذه المدّة المديدة من عمر الكون، بل بقيت الاحتمالات والنظريات تدور حوله من دون إثبات.

ولو فُرِضَت صحة وجوده، فهو ليس بموجدٍ قادرٍ بذاته، وإنَّما يقدر على ذلك بسبب طاقته المخلوقة له، فهو ممكن الوجود، محتاج الى غيره، وهذا خلاف ما دلّت عليه الفطرة والعقل من أنَّ الخالق الواحد هو واجب الوجود المستغني عن غيره، الذي لا يتحقق إلّا على القول بأنَّ الخالق الواحد هو الله تعالى؛ إذ ما زال غيره -مستقلاً أو شريكاً- من النظرية التي لم يعضدها دليل، بل ولم يتمكن منظّروها ومتبنوها من تأصيلها بدليل متفق على صحته، كما

يدل اختلافهم في تحديد هويّة الموجِد على عدم قدرتهم، بالرغم من محاولاتهم الممتدّة عبر الزمكان، المستقطبة لأعداد كثيرة.

لكن الإيمان بوجود الله تعالى وأنّه الخالق الواحد الحيّ العالم القادر بذاته، ممّا تؤكده معطيات البحث العلمي المعتمد على الفطرة والبرهان العقلي، والمقترن بحصيلة تطوّر العقل البشري من نتائج علميّة دقيقة، تثبت وجود طاقة غير عاديّة -وفقاً للمصطلح السائد- تدير الكون بما يعجز عنه غيرُها مهما اُفترضت إمكاناته، وليس هو إلّا الله تعالى.

وحيث تدور في بعض الأذهان أسئلة عدّة: حول جدوى البحث عن التوحيد، وهو من موضوعات التراث التي عالجتها جهودُ الكُتّاب، فما الموجب لتجديد بحثه في هذه المرحلة، مع وجود حاجة لمعالجة قضايا معاصرة.

وحول الهدف من اختيار كتاب «نهج البلاغة» بوصفه مصدراً أساساً للبحث؟، مع أنه مصدر قديم غير مختص بعلم الكلام، والتوحيد موضوعة كلامية.

فسيتولى التمهيد -بعد هذه المقدّمة- الإجابة عنها، ثم يليه تعريف التوحيد مع البرهنة عليه عقلاً ونقلاً بما هو من أحكام الفطرة؛ ليتعرّف القارئ بوجدانه على التوحيد، ويتابع خطوات

البرهنة عليه بعقله وفطرته وذوقه الحسي؛ فيستشعر متانة البرهان وجمالية النصوص وقوة أصدائها في النفس، حتى يتبلور لديه فهمٌ قويمٌ للتوحيد، عبر رؤية الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام ومعطيات قراءته التوحيدية الأصيلة، وما قدّمه من براهين وأدلة متنوعة تُثبت المطلوب؛ حيث إنه عليه السلام قد راعى تعدّد مستويات المتلقّين، واختلاف مداركهم الذهنية، وتنوّع مصادر معارفهم وثقافاتهم، فوفّر للجميع قاعدة بيانات سليمة، تتيح لهم معرفة التوحيد بوضوح، والقدرة على إثباته للآخر.

وبذلك قد شكّلت قراءةُ الإمامِ أميرِ المؤمنين عليه السلام علامةً بارزةً في التعريف بالتوحيد بوصفه مفهوماً، والتعرّف على براهينه وأدلته، حتى تجاوز التأثير المعرفي للإمام علي عليه السلام حدودَ هذه الأُمة أو تلك، مستقطِباً الباحثين عن قنوات الفكر الأصيل، والمعرفة النقية، ومجتذباً إياهم لمحاور علومه، مع تنوّع انتماءاتهم، وتعدد ثقافاتهم.

وهذه ميزة تُضاف الى غيرها من صفاته عليه السلام؛ إذ كان مُعلِّماً مقتدراً على الجمع بين قوته في التعليم وأمانته على العقول، بما صيّره محافظاً على إنسانية المتلقين، وحافظاً لمنظومة الفكر؛ حيث عرَضَ مفاهيم الدين وأوضحها بأسلوب لا يختلط فيه الدخيل بالأصيل، وحذّر من إتّباع الأهواء عند اختلاف الأجواء؛ قال عليه السلام:

(إِنَّمَا بَدْءُ وُقُوعِ الْفِتَنِ، أَهْوَاءٌ تُتَّبَعُ وأَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللَّه، ويَتَوَلَّى عَلَيْهَا رِجَالٌ رِجَالاً عَلَى غَيْرِ دِينِ اللَّه، فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ، لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتَادِينَ، ولَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ، انْقَطَعَتْ عَنْه أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ، ولَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ ومِنْ هَذَا ضِغْثٌ فَيُمْزَجَانِ، فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِه، ويَنْجُو الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّه الْحُسْنى)[١].

وهي رسالة مفتوحة للأجيال، تحدّد لهم المسار الآمن لئلا ينحرف عنه مَنْ أراد النجاة، أعان الله تعالى الجميعَ على ذلك، وآخر دعوانا أنْ الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

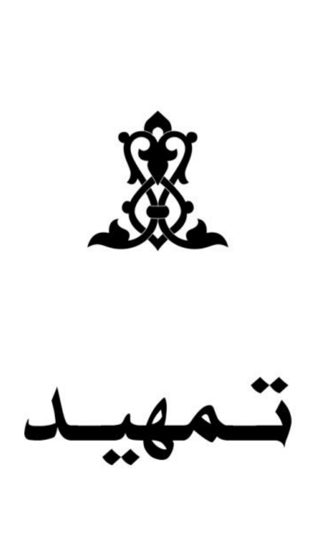
النجف الأشرف

٢٢ / جمادى الآخرة/ ١٤٤٢ هـ،٥/ ٢/ ٢٠٢١ م

محمد صادق السيد محمد رضا الخرسان

---

(١) نهج البلاغة، الشريف الرضي ٨٨، خطبة ٥٠، (تحقيق صبحي الصالح) بيروت، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م.



تمهيد

تمهيد

إنَّ موضوعة التوحيد، من موضوعات المعرفة الفاعلة حياتياً؛ لأنها ذات حيوية متجددة في حياة الإنسان؛ لاحتياجه المستمر الى ما يحدّد موقفه الصحيح من علاقته بخالقه، التي على أساسها تتشكل عقيدته بطابع إيجابي أو سلبي، فهي علاقة في صميم الوجدان.

ولذا لابد من البحث الواعي في ذلك، والحوار حوله، وتحديث المعلومات بما يقدِّم فهماً صحيحاً للتوحيد، يوضّح معالمه، ويقاوم مؤثرات الأفكار الأخرى؛ لانقسام أفراد المجتمع بين معوّل على مرتكزات فطرته، وبين مجادل فيها، وما بينهما من اصطفافات فكرية أُخر، ما يدعو لاختيار أساليب علمية قادرة على قراءة التوحيد بموضوعية، تتناسب مع كونه عقيدة ومنهجاً فكرياً في الحياة، وليس ترفاً فكرياً، الأمر الذي يوجب التعرّف عليه من المصادر الرصينة، القادرة على عرض المفهوم، وتوضيح الحقيقة؛ وذلك من أجل تحديث قاعدة بيانات الفرد، وإلّا كان اجتراراً للمعلومات، وإبقاءً على أسلوبها الرتيب.

وهو ما لا يتناسب مع أهمية السؤال عمَنْ خَلَقَ الكـون؟، فهـو سؤال ما زال يتردد في مختلف الأمكنة، حتى مع تنوّع مصادر الثقافة عبر الأزمنة، ما يؤكد عمق حضور محتوى السؤال، وقـوة صـداه في النفس، بحيث لم يكفِ لجوابه: أنه وُجد صدفة، أو بالانفجار العظـيم «الكبير»؛ لأنه جواب غير مقنع؛ إذ كما قال:

١. الفيزيائي الرياضي آلبرت إنشـتاين (١٨٧٩ – ١٩٥٥م): (الله لا يرمي النرد)[1]، أي لا مجال للاحتمال والصـدفة؛ وذلـك رداً منـه على الفيزيائي الألماني فيرنر هـايزنبرغ (١٩٠١ – ١٩٧٦م)، القائـل بمبدأ: الاحتمال وعدم اليقين[2]، الذي يكفي لنفيه انتظامُ ما في الكون وفقاً لتقدير دقيق، في إطار أنظمة علميّة، تشهد بعدم حـدوث ذلـك كله صدفةً، بل أوجده خالقه الخـبير العلـيم الحكـيم لغايـةٍ، مـا زال الإنسان ساعياً ليتعرّف على معادلاتها، وباحثاً عن قوانينها، ﴿وَعِنْـدَهُ

---

(١) ينظر: كتاب «الله لا يرمي النرد»، محمود علّام ٢٤، دار الميدان.

(٢) (مبدأ عدم اليقين، الذي يُطلق عليه أيضًا مبدأ Heisenberg في عدم اليقين أو مبدأ عدم التحديد، بيان صاغه الفيزيائي الألماني فيرنر هـايزنبرغ في العـام (١٩٢٧)، مفاده: إنَّ موضع الجسم وسرعته لا يمكن قياسهما بالضبط، في الوقت نفسه، حتى من الناحية النظرية. إنَّ مفاهيم الموقع الدقيق والسرعة الدقيقة معًا بالحقيقة، ليس لها معنى في الطبيعـة). ينظـر: موقـع الموسـوعة البريطانيـة https://www.britannica.com/science/uncertainty-principle .

مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾[١]، **﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾**[٢].

٢. الفيزيائي البريطاني: ستيفين هوكِنج (١٩٤٢ – ٢٠١٨ م) –وهو ملحد مشهور–:

(إذا كانت هناك معادلات تشير الى احتمالية نشأة شيء من لا شيء، فستظل هذه المعادلات دائماً في حاجة الى مَنْ ينفخ فيها القدرة على الفعل، فالمعادلات لا تخلق، لكنها تصف الفعل.

ويقول في حوار أُجري معه بعد نشر كتاب موجز تاريخ الزمن: إنَّ توصلَنا لمعادلات تشرح كيف بدأ العالَم، لا يعني أنَّ الإله غير موجود، ولكن يعني أنه لم يخلق الكون عشوائياً، ولكنه خلَقَهُ تبعاً لقوانين)[٣].

وبهذا فقد (أقرَّ هوكِنج بأنَّ قوانين الفيزياء حددت كيف بدأ الكون، فكأننا نقول فقط: إنَّ الإله لم يختر أنْ يسلك الكونُ بصورة اعتباطية مزاجية، ولا نقول شيئاً عن أنَّ الإله موجودٌ أو غير موجود، فقط تقول: إنه ليس اعتباطياً مزاجياً)[٤].

---

(١) سورة الأنعام، من الآية ٥٩.

(٢) سورة القمر، الآية ٤٩.

(٣) رحلة عقل، د. عمرو شريف ٩١، نيو بوك–القاهرة، ط: العاشرة ٢٠١٧ م.

(٤) ينظر: هناك إله، أنتوني فلو، ترجمة: د. صلاح الفضلي، ١٩٦، ط ٢، ١٤٣٨هـ.

وهو بهذا ينفي الصدفة؛ لأنَّ القول بها (يتحدّى العلوم الرياضية)[١]؛ إذ يعني إمكان وجود الأثر من دون مؤثر، وهو غير منطقي أصلاً.

كما أنَّ (فكرة حدوث الانفجار الكبير، تقودنا الى السؤال عن ماذا حصل قبل ذلك؟ ومَنْ الذي كان يدبِّر الأمور؟، إنَّ الطبيعة كانت لها بداية محدّدة، لا أستطيع أنْ أتصور طبيعةً تخلق نفسها، فقط قوة خارج الزمان والمكان قادرة على ذلك، ولكن ما الذي حدَثَ بعد الانفجار الكبير؟، ما الذي أوصلنا الى الوجود بعد ما يقرب من عشر بلايين سنة من الانفجار العظيم؟)[٢].

ولذا (كان يوم الأربعاء ١٩٩٩/٨/١١م يوماً حاسماً في تاريخ التعليم العام في الولايات المتحدة الأمريكية، فقد خرجت إدارة التعليم بولاية كنساس عن ما هو مألوف منذ عشرات السنين عندما صوّت ستة من أعضائها العشرة لصالح قرار يقضي بإسقاط نظرية التطوّر، والمتعلقة بأصل الإنسان، ونظرية الضربة الداوية أو الانفجار

(١) العلم يدعو للإيمان، آريسي موريسون، ترجمة: محمود صالح الفلكي ٢٦.

(٢) ينظر: لغة الإله، فرانسيس كولنز، ترجمة: د. صلاح الفضلي ٧٧ – ٧٩، ط: الأولى–الكويت ٢٠١٦م، كولنز (١٩٥٠م...): عالِم جينات أمريكي، عُرِف بريادته ورئاسته لمشروع الجينوم البشري (١٩٩٣ – ٢٠٠٨م)، وهو المشروع الذي كشَفَ لأول مرة في التاريخ عن الخريطة الجينية للإنسان.

الكبير، والمتعلقة بتكوّن الأرض، على أن يشمل جميع مراحل التعليم الحكومي العام بالولاية)[١].

وهو ما يؤكد وجود الحاجة الى تقديم جواب علميّ وتفسير منطقيّ لوجود الكون؛ حتى:

١. يضيف -هذا التفسير- شيئاً في المعادلة، فيتجه السائل الى برمجة حياته وفقاً لذلك، ولا تخترقه الشوائب «الفيروسات» الفكريّة، بل يتحصن منها باتباع دلالة عقله.

٢. يترشد المنتَج الفكري، فتتاح فرصةُ تهذيبِ المجتمع، وتعزيزِهِ ببراهين مُحْكَمَةٍ وأدلة مُقْنِعَةٍ، وليست بالقناعات الشخصية، والإملاءات المؤدلجة، بل بما ينسجم وضوابط البحث الموضوعي.

٣. يتاح للمهتمين تطوير بحوثهم التخصصية، بتحديث مفاتيح البحث، وتجديد آليات الخطاب، وتقديم مستويات جديدة في العرض أو الاستدلال، ليفي ذلك باستحقاقات التوحيد كموضوعة علمية حفّزت الباحثين لمداومة البحث، وتحقيق مرحلة جديدة من التكامل المعرفي.

وبذلك اتّضحت أهمية البحث حول التوحيد.

---

(١) ينظر: المنظار الهندسي للقرآن الكريم، د. خالد فائق العبيدي ٥٥٦، دار المسيرة.

وأما لماذا كان اختيار «نهج البلاغة» بوصفه مصدراً أساساً للبحث؟، فكون كتاب «نهج البلاغة» وهو: ما جمَعَهُ الشريف الرضي السيد محمد بن الحسين الموسوي (ت ٤٠٦ هـ) من كلام الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، من مصادر المعرفة الإنسانية وتراثها الفكري[1]؛ لامتداد أثره إنسانياً، وعدم تحدّده موقعياً بمكان أو زمان أو أشخاص[2]؛ وذلك لما امتاز به من معالجات لمختلف

(١) قال الكاتب المسيحي جورج جُرداق (١٩٣٣ - ٢٠١٤م): (في رسائل الإمام علي وفي عهوده ووصاياه، وفي خُطَبِهِ وسائر أقواله، روائعٌ خالدةٌ، وإنها لتراثٌ عظيمٌ للإنسانية؛ بوصفها دستوراً جليلاً في الأخلاق الخاصة والعامة، لا تسمو عليه دساتير الأنبياء والمفكرين والحكماء في مختلف العصور والأمكنة، في هذه الآثار العلوية من دعوةٍ الى السِلْم والمؤاخاة والتصافي في سبيل الانطلاق الى الميادين الإنسانية الرحبة، وفي سبيل إكرام الحياة، واحترام الأحياء، وإنه ليجدر بمثيري الحروب اليوم، ومسببي ويلات الشعوب والأفراد، أنْ يسمعوا كلمات جبار الفكر العربي، وعملاق الضمير الإنساني علي بن أبي طالب، ويعوها)، الإمام علي صوت العدالة الإنسانية ٢ / ٥٣٩، نشر: طليعة النور ١٤٢٥ هـ.

(٢) تضمّن تقريرُ التنميةِ الإنسانيةِ العربيةِ للعام ٢٠٠٢ م الصادرِ عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، بعضَ نصوصِ نهج البلاغة؛ ينظر: ص ٧٦، الإطار ٥ - ٦ المعرفة والعمل، ص ١٠٣، الإطار ٧ - ٣ الحُكم. وقال الأديب روكس بن زائد العزيزي (١٩٠٣ - ٢٠٠٤م): (فالذي يريد أنْ يفهم المجتمعَ العربي والعقلية العربية، لابد له من قراءة نهج البلاغة، والذي يريد أنْ يفهم أسلوب الحُكم في البلاد العربية، يحتاج الى

قضايا الإنسان والحياة، وتنوّع أدوات معالجاته بين الخُطبة والمراسلة والوصية والكلمة القصيرة، فقارَبَ أفهام مختلف المستويات، وأوضح لهم أنماط الاستدلال المتعددة، بما يضيف للمتلقي أفقاً جديداً في قراءة مشهد المعرفة العام؛ إذ احتوى نهج البلاغة فكراً وعى حجمَ المسئولية، فأدى الرسالة للإنسان كله، واهتم بترشيد فكره وفعله.

ومن دلائل ذلك: قراءة نهج البلاغة للتوحيد، واهتمام الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام به بوصفه أحد محاور العقيدة؛ بما يوضح منهجه الفكري، ويحدد معالم عقيدته، ويضيف مصدراً مهماً لفهم التوحيد والبرهنة عليه.

وعندها تعرف الأجيالُ كافة هويةَ أتباعِ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، بما يُبطل الإتهام بالشرك أو غيره؛ حيث تلقى الاتباع من إمامهم أمير المؤمنين عليه السلام نصوصاً في توحيد الخالق تعالى، مؤطرةً بالبراهين

نهج البلاغة، ونهج البلاغة في اعتقادي يعلّم العقل أولاً، والأدب ثانياً، وأساليب كلَّ فنٍ من الكتابة والخطابة ثالثاً، ويطّلع منه الإنسان على أمورٍ لا أعتقد أنها توجد في كتابٍ واحدٍ كلها مجتمعة، فأنا أنظر الى الكتاب على اعتبار أنه كنزٌ ثمينٌ، لا غنى لمتأدبٍ عنه، وأنظر الى صاحب الكتاب، فأرى أنه طوّقَ جيدَ اللغةِ العربيةِ بمِنّةٍ لا تزول حتى تزول الأرضُ ومَنْ عليها، إني لستُ شيعياً ولستُ مسلماً، بل أنا عربي نصراني كاثوليكي)، الإمام علي أسدُ الإسلامِ وقديسُهُ ٢٠٩ – ٢١٠، دار الكتاب العربي–بيروت ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩م.

والأدلة، المطابقة للعقل، والموافقة للوجدان، بما يشهد بصحة صدورها منه عليه السلام؛ لما في هذا التوافق العلمي من دلالة على الواقعية، وهو من القرائن والشواهد المهمة التي يذعن بها جميع العقلاء، ولا يُناقشوا معه بضعف السند، أو سلامة النص، أو صحة الدلالة، بل يحتكم الجميع للبرهان العقلي في حوارات المسائل العقدية ونحوها، وعدم إملاء النتائج على أحدٍ مسبقاً، أو تجييرها لطرفٍ على حساب غيره، بل عبر عقلنة الاستدلال، ومتابعة خطواته المبرهن على صحتها وقوة أسسها، وإلّا لما تحقق الغرض المرجو من الاستدلال.

فامتاز كتاب نهج البلاغة، بقدرة فائقة على تقديم رؤى الإسلام وتقريبها، عبر تمثّله لها فكراً حيوياً، يلامس مشكلات الحياة بحلول مستدامة، تتيح للمتأملين الإفادة منها، واستشعار جدواها، كأطروحة فاعلة في تحريك أجواء البحث العلمي، المقارَن مع دراسات تهتم بإثبات التوحيد عبر تحليلٍ عامٍ للطبيعة، ومحاولة فهم ديناميكية عمل مختلف الظواهر الكونية، ودراسة النتائج المرصودة، بما يؤكد وجود مدبّرٍ عاقلٍ قادرٍ حكيمٍ، يدير نظام الكون بجميع ما فيه، بنسق واحد، في مختلف الزمان والمكان، والا فلو لم يوجد هذا المدبّر، كيف كان التعاطي مع مجموعات متكاثرة، عبر أنظمة مقننة دقيقة؟، وفي ظل التزام الجميع بتلك الأنظمة، وعدم حدوث أزمةٍ في القيادة، أو اعلانِ

أحدٍ عن مشاركته في الخلق أو التنظيم!، بما يبرهن على وحدة مصدر القرار والإدارة؛ ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾[1].

كما امتاز نهج البلاغة بتأصيل الفهم الصحيح لقضايا المعرفـة، في عرضٍ أدبيٍّ بليغٍ، جامعٍ بين التزامات الماضي واستحقاقات الحاضـر وتطلّعات المستقبل، بما يوثّق لاهتمامٍ واضحٍ بالأجيال كافة.

(ويستمر تولّد الأفكار في نهج البلاغة من الأفكـار، فـإذا أنـت أمام حشدٍ منها لا ينتهي، وهو مـع ذلـك لا يتـراكم، بـل يتسـاوق ويترتب بعضُهُ على بعض.

ومن ذكاء عليٍّ المفرط في نهجه، أنه نوّعَ البحثَ والوصفَ، فأحكم في كل موضوع، ولم يَقصِر جهـدَهُ العقلـي علـى ناحيـةٍ واحـدةٍ مـن الموضوعات، فهو يتحدث بمنطق الحكيم الخبير عن أحوال الدنيا، وهو يصف البرق والرعد والأرض والسماء، ويُسهب في القول في التـاريخ الطبيعي، فيصف خفايا الخلق، في الخفاش والنملة والطاووس والجرادة وما اليها، ويضع للمجتمـع دسـاتير، وللأخـلاق قـوانين، ويُبـدع في التحدّث عن خالق الكون وروائع الوجـود، وإنـك لا تجـد في الأدب العربي كلِّه هذا المقدار الذي تجده في نهج البلاغـة مـن روائـع الفكـر

---

(١) سورة الكهف، من الآية ٣٨.

السليم والمنطق المُحكم في مثل هذا الأسلوب النادر)[١].

ولهذه الخصائص كانت لنهج البلاغة الصدارة الفكرية بعد القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة؛ فقد (بلَغَ عليٌّ قمةَ المستوى الإنساني، فما هو بعربي يتحدث الى عرب، ولا بمسلم يحدِّث مسلمين، إنما هو مفكِّر مؤمن يخاطب البشر، جميعَ البشر، منذ كان في الأرض بشرٌ يعقلون، الى أنْ يقرر اللهُ مصائرَ خلائقه)[٢].

فكانت في خطاب نهجِ البلاغةِ حيويةٌ تأثّر بها الجميع؛ حيث لم تكن نصوصُهُ باهتةً جامدةً، بل ما زالت قادرةً على فتح آفاق المعرفة، واستثارة عقول الباحثين لاكتشاف المزيد، بما يحقق حراكاً علمياً، وينتج مناعةً فكريةً، قد يفتقدهما مَنْ لم يتلمّس خصائصَ هذا الكتاب، الذي اغتنى منه كثير، فاهتموا به وحفظوا كثيراً من نصوصه، وأوصوا غيرهم بذلك[٣]، (ولا يُحصي الا الله عددَ حُفّاظ

(١) الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، جورج جرداق ٢ / ٥١٤ - ٥١٥.

(٢) في خُطى علي، نصري سلهب ٢٧٥ - ٢٧٦، دار الكتاب اللبناني، ط: الأولى ١٩٧٣م.

(٣) أمثال الأدباء: جورج صيدح، وجبران خليل جبران، وبشارة الخوري «الأخطل الصغير»، وبولس سلامة، وجورج جرداق، وسليمان كتاني، ود. فؤاد أفرام البستاني، والياس فرحات، والشيخ ناصيف اليازجي، ينظر: هكذا عرفتهم، جعفر الخليلي ٧ / ٢٤، ٩٨ مطابع الدستور التجارية -عَمّان ١٩٩٣ م، المعجزة الخالدة، السيد هبة الدين

النهج ونُسّاخه)[١]؛ (لأنَّ الحكمة عند علي بن أبي طالب وافرة المعنى، جميلة المبنى، يأخذها عقليةً لا لون لها ولا رسم فتمرُّ في مخيلته، فإذا هي صورة جميلة تترجرج فيها الحياة)[٢]، (فقد سبَقَ عصرَهُ بمئات السنين، وأنَّ الأجيال المقبلة ستكشف في شخصيته الفذة، عناصر جديدة من العظمة، وفي علومه وخُطَبِهِ أسراراً تحيّرهم)[٣].

و(إنَّ جميع الفِرق الإسلامية، مَدينةٌ للإمام علي، من اليوم الذي برزت فيه للوجود، وإنَّ له أفكاراً في التنظيم الاجتماعي ومكافحة الفقر وحقوق الإنسان... إنَّ له من الآراء الحية التي لا تموت حظاً غير منقوص)[٤].

و(إنَّ أصول التوحيد والعدل مأخوذة من كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام وخُطبِهِ، وانها تتضمن من ذلك ما لا مزيد عليه ولا غاية

الشهرستاني ١٢، ط: الثانية، نظرات في القرآن، الشيخ محمد الغزالي ١٣٣، نهضة مصر، ط: السادسة ٢٠٠٥ م.

(١) مقدمة نهج البلاغة، د. صبحي الصالح ١٨، دار الكتاب اللبناني – بيروت ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م.

(٢) ينظر: الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر، راجي أنور هيفا ٦٢١، دار العلوم- بيروت ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧ م.

(٣) الإمام علي أسدُ الإسلامِ وقديسُهُ، روكس بن زائد العزيزي ٢٠٧.

(٤) المصدر نفسه.

وراءه، ومن تأمل المأثور في ذلك من كلامه، عَلِمَ أنَّ جميع ما أسهب المتكلمون من بعدُ في تصنيفه وجمعه، إنما هو تفصيلٌ لتلك الجمل وشرحٌ لتلك الأصول)[١]؛ إذ (أشرف العلوم هو العلم الإلهي، ومن كلامه عليه السلام اُقتبس، وعنه نُقِل، وإليه انتهى، ومنه ابتدأ؛ فإنَّ المعتزلة تلامذته؛ لأنَّ كبيرهم واصل بن عطاء، تلميذ أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، وأبو هاشم تلميذ أبيه وأبوه تلميذه عليه السلام، وأما الأشعرية فإنَّهم ينتمون إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري، وهو تلميذ أبي علي الجبائي، وأبو علي أحد مشايخ المعتزلة، فالأشعرية ينتهون بأخرة إلى أستاذ المعتزلة ومعلمهم وهو علي بن أبي طالب عليه السلام)[٢].

إنَّه الإمام الذي (أقرَّ له أعداؤه وخصومه بالفضل، ولم يمكنهم جحد مناقبه، ولا كتمان فضائله؛ فقد استولى بنو أمية على سلطان الإسلام في شرق الأرض وغربها، واجتهدوا بكل حيلة في إطفاء نوره، والتحريض عليه، ووضع المعايب والمثالب له، ولعنوه على جميع المنابر، وتوعدوا مادحيه، بل حبسوهم وقتلوهم، ومنعوا من

---

(١) الأمالي، الشريف المرتضى ١ / ١٠٣.

(٢) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ١ / ١٧، دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م.

رواية حديثٍ يتضمن له فضيلةً، أو يرفع له ذكراً، حتى حظروا أن يُسمى أحدٌ باسمه، فما زاده ذلك إلا رفعةً وسمواً، وكان كالمسك كلّما سُتر انتشر عَرفه، وكلما كُتم تضوّع نشره، وكالشمس لا تُستر بالراح، وكضوء النهار إنْ حُجبت عنه عينٌ واحدةٌ، أدركته عيون كثيرة، وما أقول في رجلٍ تُعزى إليه كلُّ فضيلة، وتنتهي إليه كلُّ فرقة، وتتجاذبه كلُّ طائفة، فهو رئيس الفضائل وينبوعها -بعد رسول الله ﷺ-، كلُّ مَنْ بزغ فيها بعده فمنه أخذ، وله اقتفى)[1].

حتى كان (أحمد بن حنبل يقول: ما جاء لأحدٍ من أصحاب رسول الله ﷺ من الفضائل، ما جاء لعليٍّ بن أبي طالب)[2].

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ١ / ١٦ - ١٧.

(٢) المستدرك، الحاكم النيسابوري ٣ / ١٠٧، مناقب الأسد الغالب علي بن أبي طالب، شمس الدين محمد بن الجزري، ٣٨.



تعريفُ التوحيدِ

لغةً واصطلاحاً

تعريفُ التوحيدِ لغةً واصطلاحاً

التوحيدُ لغةً: مصدر الفعل وحَّد، يوحِّد، توحيداً، فهو موحِّـد؛ إذا وصف الله تعالى بالوحدانية، وأنه منفردٌ عمـا يشـاركه في ذاتـه، أو يشابهه في صفاته.

وهو مشتق من مادة الواو والحاء والدال: أصل يدل على الانفراد[1]، وهو :الإيمان بالله وحده لا شريك له[2].

واصطلاحاً: إثبات صانع واحد موجِدٍ للعالَم، ونفي مـا عـداه[3]، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ واحد لا قـديم سـواه، ولا إلـه غـيره، ولا يشـبه الأشياء، ولا يجوز عليه ما يصح عليها من التحرك والسكون، وأنَّـه لم يزل ولا يزال حياً قادراً عالماً مدركاً، لا يحتـاج إلى أشـياء يعلـم بها، ويقدر ويحيي[4].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٦ / ٩٠.

(٢) العين، الفراهيدي ٣ / ٢٨١.

(٣) الرسائل العشر، الشيخ الطوسي ١٠٣.

(٤) نهج الحق وكشف الصدق، العلامة الحلي ٧٧.

وإنَّ هذا التقارب بين التعريفين اللغوي والكلامي للتوحيـد، إمـا لتأثر الباحث اللغوي بالمنظومة الكلامية، وإما لتحدد الباحث الكلامي بإطار مفردات تعبيرٍ معينةٍ، ومعه فـلا يُتوقـع اختلافهمـا في المقـام وأمثاله، فكان التوحيد عند الجميع هو: الاعتقاد بإله واحد أحـد، لا شريك له.



التَوحيدُ
في القرآنِ المجيدِ والسُنّةِ المُطّهَرَةِ
«نماذج»

التَوحيدُ في القرآن المجيدِ والسُنّةِ المَطّهَرَةِ «نماذج»

إنَّ التوحيد (هو: رأسُ كلِّ حكمةٍ وملاكُها، ومَنْ عَدِمَهُ لم تنفعه حِكَمُهُ وعلومُهُ وإن بذَّ فيها الحكماء، وحكَّ بيافوخه السماء، وما أغنت عن الفلاسفة أسفارُ الحِكم، وهم عن دين الله أضل من النِعم)[1].

ولهذا كان التوحيد مرتكزاً أساساً لإيمان الإنسان بوجود الله تعالى الخالق للكون، الذي كما دلّ العقل عليه، فقد عاضَدَهُ النقل على توضيح هذه الحقيقة.

وقد جاءت الدعوة لذلك والحثّ عليه في القرآن المجيد والسُنّة المطّهرة في موارد عدّة؛ فقد:

١. قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[2].

٢. ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾[3].

٣. ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[4].

---

(١) تفسير النسفي ٢ / ٢٥٨، الكشاف، الزمخشري ٢ / ٤٥٠.

(٢) سورة التوحيد، الآية ١.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٦٣.

(٤) سورة المائدة، من الآية ٧٣.

٤. ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾[(١)].

٥. ﴿سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[(٢)].

٦. ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[(٣)].

٧. قال رسول الله ﷺ: (بُني الإسلامُ على خمسٍ: شهادة أن لا إله إلا الله، وأقام الصلاة وايتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان)[(٤)].

٨. قال رسول الله ﷺ: (بُني الإسلام على خمس خصال: على الشهادتين والقرينتين. قيل له: أما الشهادتان فقد عرفناهما، فما القرينتان؟ قال: الصلاة والزكاة؛ فإنه لا يقبل أحدهما إلا بالأخرى، والصيام، وحج البيت مَن استطاع إليه سبيلاً، وختم ذلك بالولاية، فأنزل الله عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلامَ دِيناً﴾[(٥)])[(٦)].

---

(١) سورة محمد، من الآية ١٩.

(٢) سورة فصلت، الآية ٥٣.

(٣) سورة الأنبياء، الآية ٢٢.

(٤) مسند أحمد ٤ / ٣٦٣.

(٥) سورة المائدة، الآية ٣.

(٦) الأمالي، الشيخ الطوسي ٥١٨، رقم ١١٣٤ / ٤١.

٩. قال رسول الله ﷺ: (بُني الإسلام على عشرة أسهم: على شهادة أن لا إله إلا الله وهي الملة، والصلاة وهي الفريضة، والصوم وهو الجُنة، والزكاة وهي الطُهر، والحج وهي الشريعة، والجهاد وهو الغزو، والأمر بالمعروف وهو الوفاء، والنهي عن المنكر وهو الحجة، والجماعة وهي الألفة، والعصمة وهي الطاعة)[1].

وإنَّ اختلاف "خَمس خصال" و"عشرة أسهم"، بسبب تعدّد المقام؛ حيث يحتاج أحياناً الى إجمال ما يجب الالتزام به، وأخرى الى تفصيله، وهما معاً يؤكدان على إقرار اللسان بالتوحيد، والالتزام العملي بأداء غيره من ركائز هذا البناء.

١٠. قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: (فَظَهَرَتِ الْبَدَائِعُ، الَّتِي أَحْدَثَتْهَا آثَارُ صَنْعَتِه تعالى، وأَعْلَامُ حِكْمَتِه، فَصَارَ كُلُّ مَا خَلَقَ حُجَّةً لَه ودَلِيلاً عَلَيْه، وإِنْ كَانَ خَلْقاً صَامِتاً فَحُجَّتُه بِالتَّدْبِيرِ نَاطِقَةٌ، ودَلَالَتُه عَلَى الْمُبْدِعِ قَائِمَةٌ)[2]؛ بما يختصر الدليل على وجود الخالق سبحانه؛ إذ كانت آثارُ بديعِ ما خلقه تعالى، دالةً على وجوده؛ لاستحالة وجود المعلول بلا علة، أو السبب من دون مسبِب.

---

(١) الخصال، الشيخ الصدوق ٤٤٧، ح٤٧.

(٢) نهج البلاغة، الشريف الرضي ١٢٦، خطبة ٩١.



أقسامُ التوحيدِ ومراتِـبُهُ

أقسامُ التوحيدِ ومراتِبُهُ

إنَّ التوحيد هو: إثباتُ صانعٍ واحدٍ موجِدٍ للعالَم، ونفي ما عداه.

ويمكن معرفة ذلك وإثباته والصيرورة اليه من جهات عدة؛ فقد يُراد إثبات أصل وجوده تعالى وأنّه واجب الوجود، كما قد يُراد ادراك حقيقة ذاته ومعرفتها، ولكلٍ منهما اعتباره وحدوده الخاصة به؛ وذلك لاختلاف زوايا النظر، وتعددية الاعتبار الملحوظ، وبذا كانت أقسام التوحيد ومراتبه هي:

الأول: التوحيد في الذات

وهو: الاعتقاد بأنَّ الله تعالى واحدٌ لا شريك له؛ قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: (أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَه إِلّاَ اللَّه وَحْدَه لَا شَرِيكَ لَه، الأَوَّلُ لَا شَيْءَ قَبْلَه والآخِرُ لَا غَايَةَ لَه، لَا تَقَعُ الأَوْهَامُ لَه عَلَى صِفَةٍ، ولَا تُعْقَدُ الْقُلُوبُ مِنْه عَلَى كَيْفِيَّةٍ، ولَا تَنَالُه التَّجْزِئَةُ والتَّبْعِيضُ، ولَا تُحِيطُ بِه الأَبْصَارُ والْقُلُوبُ)[1]؛ فقد أوضح عليه السلام أنَّ أحديّة ذات الله تعالى

---

(١) نهج البلاغة، الشريف الرضي ١١٦، خطبة ٨٥.

وواحديّته[(١)] عينُ ذاته سبحانه؛ لأنه لو كان مركباً، فإما يتركب من أجزاءٍ عقلية فقط، أو منها ومن أجزاءٍ خارجية كالمادة والصورة، أو من أجزاءٍ مقداريّة؛ كأجزاء الخط والسطح، والكل منتفٍ عنه تعالى؛ وذلك حيث تنزه عن الماهيّة[(٢)]؛ لأنه واجب الوجود بالذات فلا ماهيّة له، ولا تعدّد فيه؛ لأنه صِرف الوجود، والا كان ممكناً حتى تكون له ماهيّة، وهذا خلاف كونه واجب الوجود بالذات، فليست له أجزاء عقليّة –من الجنس والفصل[(٣)]–، كما ليست له أجزاء خارجية

---

(١) الأحديّة هي: أنّه تعالى وجودٌ غير مركب، فلا جزء له، الواحدية هي: أنَّ لا مثيل ولا نظير لذاته عزّ وجلّ.

(٢) الماهيّة: لفظة مشتقّة من السؤال عن حقيقة الشيء، إذ يقال: "ما هو"، وغالباً ما تستعمل في الأمر المعقول، ولو لم يكن موجوداً فعلاً، فالماء مثلاً عند السؤال عنه بـ "ماهو"؟، ويُجاب عنه بأنّه مادة شفافة عديمة اللون والطعم والرائحة، فيكون هذا الجواب توضيح لماهيّة الماء، وبيانٌ لحقيقته. ينظر: كشف المراد، العلّامة الحلي ١٢٥ – ١٢٦ بتوضيح.

(٣) الجنس والفصل: أمّا الجنس: فهو ما يُجاب به عن سؤال: ما هو؟، ممّا يتضمّن بيان تمام الحقيقة المشتركة بين الجزئيات المتكثرة بالحقيقة وبالعدد؛ كالسؤال عن الإنسان والفرس والبلبل ما هو؟، فيُجاب عنه بأنّه حيوان.

فكان سؤالاً عمّا اختلف في حقيقته، ولا بدّ من الجواب عنه بذكر تمام الحقيقة المشتركة بينها، وهو الحيوان.

وأمّا الفصل فهو ما يُجاب به عن سؤال: أيُّ شيءٍ هو؟، ممّا يتضمّن تحليل حقيقة الشيء وفصله عمّا يشاركه فيها؛ كالسؤال عن الفرس أيُّ شيء هو؟، فيُجاب عنه بأنّه: حيوان صاهل.

أو مقدارية؛ لأنه تنزّه عن الجسم والمادة؛ بل هو كما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

١. (الأَحَدِ بِلَا تَأْوِيلِ عَدَدٍ)[١].

٢. (وَاحِدٌ لَا بِعَدَدٍ)[٢].

٣. (كُلُّ مُسَمّىً بِالْوَحْدَةِ غَيْرَه قَلِيلٌ)[٣]؛ إذ وحدتُهُ تعالى عينُ ذاته ونفسُها، دون أنْ تتخللها شوائب الممكنات؛ إذ لا حيثية أخرى له تعالى سوى الوجود الأصيل؛ لأنه لو كانت وحدته تعالى عدديّة، لأمكن فرض الثاني والثالث وهكذا صعوداً؛ كما هو حال الوحدة العددية التي تنطبق على ما يتكرر وجوده؛ فيقال: واحد، اثنان، ثلاثة...، لكنّ ذلك مستحيل في الوحدة الإلهية الحقّة؛ لأنَّ معنى: إنَّ الله تعالى واحد، أنه لا يفترض له ثان أصلاً؛ إذ وحدته سبحانه ليست بعددية، والا كان محدوداً بزمان ومكان، وهو خلاف كونه تعالى أزلياً قديماً، فيستحيل فرض تعدّد الوحدة الإلهية؛ لأنَّها ليست

فكان سؤالاً عن الجزء المختص بحقيقة ما يميز الشيء عمّا عداه، ينظر: المنطق، الشيخ محمد رضا المظفر ٨٧ – ٨٩ بتوضيح.

(١) نهج البلاغة ٢١٢، خطبة ١٥٢.

(٢) المصدر نفسه ٢٦٩، خطبة ١٨٥.

(٣) المصدر نفسه ٩٧، خطبة ٦٥.

بصفة زائدة على ذاته تعالى، لتوصف بالتثنية والتثليث أو غيرهما من الأعداد، بل هي عينُ الموجود واجبِ الوجودِ بالذات سبحانه، الذي لا تركّب في وجوده الصِرْف؛ قال عليه السلام:

٤. (مَنْ وَصَفَه فَقَدْ حَدَّه، ومَنْ حَدَّه فَقَدْ عَدَّه، ومَنْ عَدَّه فَقَدْ أَبْطَلَ أَزَلَه)[1].

٥. (لَا يُشْمَلُ بِحَدٍّ ولَا يُحْسَبُ بِعَدٍّ، وإِنَّمَا تَحُدُّ الأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا، وتُشِيرُ الآلَاتُ إِلَى نَظَائِرِهَا)[2].

فالتوحيد في الذات يعني نفي الشريك والتشبيه والجزء عنه تعالى، وإلّا كان مركباً، وقد تقدم إثبات بطلانه، كما ويشهد به دليل الفطرة؛ حيث لا يتوجّه القلب إلّا إلى حقيقة واحدة، ولا يتعلّق الرجاء عند تقطّع الأسباب، إلّا بقادر مطلق واحد، فلو كان غيره، لتوجّه القلب اليه، وتعلّق الرجاء به، فعدمُ حصولِ ذلك من أحدٍ –ولو في مرة واحدة– دلالةٌ على عدم وجود شريك لله تعالى.

رُوِيَ: (إنَّ أعرابياً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين أتقول: إنَّ الله واحد؟ قال: فحمل الناس عليه وقالوا:

---

(١) نهج البلاغة ٢١٢، خطبة ١٥٢.

(٢) المصدر نفسه ٢٧٣، خطبة ١٨٦.

يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين عليه السلام من تقسّم القلب؟، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: دعوه؛ فإنَّ الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم.

ثم قال: يا أعرابي إنَّ القول في أنَّ الله واحد على أربعة أقسام:

فوجهان منها لا يجوزان على الله عزّ وجلّ، ووجهان يثبتان فيه.

فأما اللذان لا يجوزان عليه: فقول القائل: "واحد"؛ يقصد به باب الأعداد، فهذا ما لا يجوز؛ لأنَّ ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، أما ترى أنه كفَرَ مَنْ قال: ثالث ثلاثة؟.

وقول القائل: هو واحد من الناس، يريد به النوع من الجنس، فهذا ما لا يجوز عليه؛ لأنه تشبيه، وجَلَّ ربُّنا عن ذلك وتعالى.

وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه: فقول القائل: هو واحد ليس له في الأشياء شبه، كذلك ربُّنا، وقول القائل: "إنه عزّ وجلّ أحديّ المعنى"، يعني به: إنَّه لا ينقسم في وجودٍ ولا عقلٍ ولا وَهْمٍ كذلك ربّنا عزّ وجلّ)[1].

---

(١) التوحيد، الشيخ الصدوق ٨٣، ح ٣.

الثاني: التوحيد في الصفات

وهو: الاعتقاد بأنَّ الله تعالى متفردٌ بكون صفاته تعالى عينَ ذاتـه ولا تزيد عليها، ولا يشبهه في ذلك أحد؛ لأنَّ صفاته تعالى الكماليـة الثبوتية[١] إما:

أ- **حقيقية**؛ كالعلم والقدرة والحياة والغنى؛ فهي صـفات اتّصـفت بها ذاته، فيمتنع اتصافه بضدها.

ب- إضافية؛ كالخالقية والرازقيّة والإحياء والإماتة؛ فهي صفات أفعاله التي اتّصف تعالى بها وبضدها؛ إذ يقال: إنَّ اللَّه تعـالى خلـق هذا ولم يخلق أخاه بعد، ورزَقَ هذا ولم يرزق ذاك بعد.

ولو لم تكن صفاتُه تعالى عينَ ذاتِه للزم من ذلك:

أ- تعدّد الذات والصفات، وهو ما يستلزم التركّب من أجزاء، بما يعني احتياج المركّب إليها وإلى الـذي يركّبـها، وهـذا كلّـه خـلاف الثابت بالوجدان والبرهان من قدرة الله تعالى.

---

(١) إنَّ للصفات الإلهية عدة تقسيمات؛ وذلك باختلاف الاعتبارات الملحوظـة حـال التقسيم، والحيثيات المنظورة في التصنيف: كتقسيمها إلى: الثبوتية الكماليـة، والسـلبية التنزيهية، أو الجلاليّة والجمالية، أو السـمعية والعقليـة، أو صـفات الـذات، وصـفات الفعل، ينظر: شرح المصطلحات الكلامية، إعداد قسم الكلام في مجمع البحوث الإسلامية ١٨٨ – ١٨٩.

ب- زيادة الصفات على الذات، وأنَّها ليست عين ذاته، بما يعني الاحتياج الى غيره، وهو خلاف اتصافه بصفات الكمال الثابتة له؛ وفقاً لمعطيات البراهين والأدلة - الآتية -، لأنَّه لو لم تكن صفات الله عين ذاته، لكانت ممكنة الوجود والعدم، وهو خلاف كونه تعالى واجبَ الوجود، وهو ما استدلّ عليه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

١. (كَمَالُ الإِخْلَاصِ لَه نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْه؛ لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ، وشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّه غَيْرُ الصِّفَةِ، فَمَنْ وَصَفَ اللَّه سُبْحَانَه فَقَدْ قَرَنَه، ومَنْ قَرَنَه فَقَدْ ثَنَّاه، ومَنْ ثَنَّاه فَقَدْ جَزَّأَه، ومَنْ جَزَّأَه فَقَدْ جَهِلَه، ومَنْ جَهِلَه فَقَدْ أَشَارَ إِلَيهْ، ومَنْ أَشَارَ إِلَيهْ فَقَدْ حَدَّه ومَنْ حَدَّه فَقَدْ عَدَّه)[١].

٢. (الأَوَّلُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَه قَبْلٌ فَيَكُونَ شَيْءٌ قَبْلَه، والآخِرُ الَّذِي لَيْسَ لَه بَعْدٌ فَيَكُونَ شَيْءٌ بَعْدَه، والرَّادِعُ أَنَاسِيَّ الأَبْصَارِ عَنْ أَنْ تَنَالَه أَوْ تُدْرِكَه، مَا اخْتَلَفَ عَلَيْه دَهْرٌ فَيَخْتَلِفَ مِنْه الْحَالُ، ولَا كَانَ فِي مَكَانٍ فَيَجُوزَ عَلَيْه الِانْتِقَالُ،...الْجَوَادُ الَّذِي لَا يَغِيضُه سُؤَالُ السَّائِلِينَ، ولَا يُبْخِلُه إِلْحَاحُ الْمُلِحِّينَ)[٢].

---

(١) نهج البلاغة ٤٠، خطبة ١.

(٢) المصدر نفسه ١٢٥، خطبة ٩١.

٣. (لَا تُدْرِكُه الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ، ولَكِنْ تُدْرِكُه الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الإِيمَانِ، قَرِيبٌ مِنَ الأَشْيَاءِ غَيْرَ مُلَابِسٍ، بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرَ مُبَايِنٍ، مُتَكَلِّمٌ لاَ بِرَوِيَّةٍ، مُرِيدٌ لَا بِهِمَّةٍ، صَانِعٌ لَا بِجَارِحَةٍ، لَطِيفٌ لَا يُوصَفُ بِالْخَفَاءِ، كَبِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْجَفَاءِ، بَصِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْحَاسَّةِ، رَحِيمٌ لَا يُوصَفُ بِالرِّقَّةِ)[١].

٤. (الَّذِي لَا يُدْرِكُه بُعْدُ الْهِمَمِ، ولَا يَنَالُه غَوْصُ الْفِطَنِ، الَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِه حَدٌّ مَحْدُودٌ، ولَا نَعْتٌ مَوْجُودٌ ولَا وَقْتٌ مَعْدُودٌ، ولَا أَجَلٌ مَمْدُودٌ، فَطَرَ الْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِه، ونَشَرَ الرِّيَاحَ بِرَحْمَتِه، ووَتَّدَ بِالصُّخُورِ مَيَدَانَ أَرْضِه)[٢].

٥. (الْحَمْدُ لِلَّه الَّذِي لَا تُدْرِكُه الشَّوَاهِدُ، ولَا تَحْوِيه الْمَشَاهِدُ، ولَا تَرَاه النَّوَاظِرُ، ولَا تَحْجُبُه السَّوَاتِرُ؛ الدَّالِّ عَلَى قِدَمِه بِحُدُوثِ خَلْقِه، وبِحُدُوثِ خَلْقِه عَلَى وُجُودِه، وبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَا شَبَه لَه، الَّذِي صَدَقَ فِي مِيعَادِه، وارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِه، وقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِه، وعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِه، مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ الأَشْيَاءِ عَلَى أَزَلِيَّتِه، وبِمَا وَسَمَهَا بِه مِنَ الْعَجْزِ عَلَى قُدْرَتِه، وبِمَا اضْطَرَّهَا إِلَيْه مِنَ الْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِه)[٣].

---

(١) نهج البلاغة ٢٥٨، من كلام له ١٧٩.

(٢) المصدر نفسه ٣٩، خطبة ١.

(٣) المصدر نفسه ٢٦٩، خطبة ١٨٥.

٦. (هَيْهَاتَ إِنَّ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذِي الْهَيْئَةِ والأَدَوَاتِ، فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِه أَعْجَزُ، ومِنْ تَنَاوُلِه بِحُدُودِ الْمَخْلُوقِينَ أَبْعَدُ)[١].

الثالث: التوحيد في الأفعال «الآثار»

وهو: الاعتقاد بأنَّ اللهَ تعالى وحده خالقُ العبادِ ورازقُهم والقادرُ على العناية بهم، وأنَّ غيرَهُ محتاجٌ اليه في أصل وجوده واستمراره؛ حيث لا يستغني الممكن -أصلاً- عن الواجب، بل يفتقر في ذاته وفعله الى واجب الوجود تعالى؛ مذ أنْ خلَقَ الله تعالى الخلْقَ من العدم، الى أنْ يفنى الخلق؛ إذ ليس سواه سبحانه خالق مستقل بالذات.

نعم، قد تقتضي الحكمة -أحياناً- أنْ يأذن تعالى لبعض عباده بالخلق؛ قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا

---

(١) نهج البلاغة ٢٣٤، خطبة ١٦٣.

سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[1]؛ وذلك من خلال ما أودعه تعالى من قانون السببية للأشياء، وسائر ما جعله في النظام الكوني الثابت من أنظمة وأدوار، تجري بموجبها الآثار الطبيعية، وأفعال البشر وغيرهم ممّا يسير بنظام دقيق، على مدى الزمان، وفي مختلف المكان، بما يدل على وجود الخالق.

وإلّا لما أمكن لأحدٍ أنْ يخلق شيئاً؛ كما يوثِّق له عجزُ المعترضين أو المشككين عن خلق شيءٍ مهما كان حجمه ودوره الإنتاجي، وبما يدل أيضاً على بطلان الصدفة؛ بما تعنيه من حصول الفعل بلا قصدِ فاعلٍ وإرادته؛ إذ تكون في وضوح بطلانها كتصحيح وجود الأثر بلا مؤثر، أو المسبَّب بلا سبب، فالجميع في استحالته كاستحالة كون الجزء أعظم من الكل؛ لأنَّ العكس هو الصحيح، وإلّا كان القول بوجود المعلول بلا علّة، مناقضٌ لقانون العِلِّيَّة نفسه، المعلوم بالفطرة؛ إذ (كلُّ أحدٍ لو شاهَدَ أيّ أثرٍ من الآثار، لا يشك أنَّ لذلك البناء بانياً، ولذلك الزرع زارعاً، ولهذه الصنائع صانعاً، بحيث يستنكر وجود الدار من نفسها، أو أوجدتها الطبيعة، وأحدثتها المادة؛ فطرةً من نفسه، وغريزةً من ذاته، لم يستفدها من معلِّمٍ، ولا اكتسبها من

(١) سورة المائدة، الآية ١١٠.

مدرسة)[١]؛ إذ (أنَّ العملية التي تأخذ بها النباتاتُ الطاقةَ، تسمى بالتمثيل الضوئي، هناك حوالي سبعين تفاعل كيميائي منفصل في عملية التمثيل الضوئي، هل حدَثَ ذلك بالصدفة؟ هل هذا معقول؟، لا، لا يمكن تصديق ذلك)[٢].

فاتضح أنَّ القول بوجود الإله، ليس بديلاً عن الصدفة؛ بعد ثبوت عدم معقوليتها، ولا أنَّه ردة فعلٍ لذلك، بل كان بسبب قيام البرهان على وجود الفاعل، وأيضاً لقصور العلوم الطبيعية عن تفسير ذاتيّة الذاتيات؛ إذ يستمر معها السؤال عن علة ذلك، الذي لا تجيب عنه اللا سببيّة؛ لأنَّها هي العشوائية والفوضى، فتتعارض مع قانون العِلِّيَّة المعلوم بالفطرة.

ومعه لابد إما من:

---

(١) ينظر: الدين والإسلام، الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء ١ / ٩٦ باختصار، (موسوعة الإمام محمد الحسين آل كاشف الغطاء، الآثار الكلامية)، وكان أول طبعه عام ١٣٣٠ هـ ينظر: الذريعة، الشيخ أغا بزرك الطهراني ٨ / ٢٩٣، رقم ١٢ ٨٩، وهو ما يوثِّق لاهتمام الأعلام بتوضيح الحقائق مذ أكثر من مئة عام، بل وقبلها، لكن الشبهات ما زالت تُثار لعدة عوامل، ولا خيار إلا مداومة العمل، وتحديث أسلوبه؛ أداءً للواجب، والله المستعان.

(٢) ينظر: وهم الإله، ريتشارد دوكينز، ترجمة بسام البغدادي ١٢٢، الطبعة العربية الثانية.

أ_ وجود المؤثر والفاعل، وهو الله تعالى؛ قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[(١)].

ب_ إقدار الله تعالى لغيره على الفعل؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[(٢)]؛ فهو سبحانه يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا؛ باعتبار أنه الخالق المستقل الإرادة بذاته أصالةً، ولم يكتسبها من أحد، وأما غيره: "تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا"، أو ما كان لنبيّه عيسى عليه السلام من الخلق أو الإبراء أو الإخراج، كما تقدم.

فجميع الأفعال حاصلة بإذنه تعالى؛ حيث أتاح للفاعل ذلك، فالفاعل المباشر متأخر رتبةً عن فاعليته تعالى، وفي طولها؛ لاستمدادهم جميعاً منه سبحانه؛ لاحتياج الممكن للواجب –فلا تنافي بين الآيتين المباركتين–؛ قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

١. (فَإِنَّمَا أَنَا وأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبٍّ لَا رَبَّ غَيْرُه، يَمْلِكُ مِنَّا مَا لَا نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا)[(٣)].

---

(١) سورة الزمر، الآية ٤٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٦١.

(٣) نهج البلاغة ٣٣٥، خطبة ٢١٦.

٢. (قَدَّرَ الأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وقَلَّلَهَا، وقَسَّمَهَا عَلَى الضِّيقِ والسَّعَةِ، فَعَدَلَ فِيهَا؛ لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا ومَعْسُورِهَا؛ ولِيَخْتَبِرَ بِذَلِكَ الشُّكْرَ والصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّهَا وفَقِيرِهَا)[١].

٣. (أَرَانَا مِنْ مَلَكُوتِ قُدْرَتِه، وعَجَائِبِ مَا نَطَقَتْ بِه آثَارُ حِكْمَتِه، واعْتِرَافِ الْحَاجَةِ مِنَ الْخَلْقِ إِلَى أَنْ يُقِيمَهَا بِمِسَاكِ قُوَّتِه، مَا دَلَّنَا بِاضْطِرَارِ قِيَامِ الْحُجَّةِ لَه عَلَى مَعْرِفَتِه)[٢].

٤. (أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِه وجَلَلِ كِبْرِيَائِه، مَا حَيَّرَ مُقَلَ الْعُقُولِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِه، ورَدَعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ النُّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كُنْه صِفَتِه)[٣].

٥. (الْمَنَّانُ بِفَوَائِدِ النِّعَمِ وعَوَائِدِ الْمَزِيدِ والْقِسَمِ، عِيَالُه الْخَلَائِقُ، ضَمِنَ أَرْزَاقَهُمْ وقَدَّرَ أَقْوَاتَهُمْ... الْجَوَادُ الَّذِي لَا يَغِيضُه سُؤَالُ السَّائِلِينَ، ولَا يُبْخِلُه إِلْحَاحُ الْمُلِحِّينَ)[٤].

---

(١) نهج البلاغة ١٣٤، خطبة ٩١.

(٢) المصدر نفسه ١٢٦، خطبة ٩١.

(٣) المصدر نفسه ٣٠٨، خطبة ١٩٥.

(٤) المصدر نفسه ١٢٤، خطبة ٩١، وأيضاً قوله عليه السلام: (ابْتَدَعَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ امْتَثَلَه، ولَا مِقْدَارٍ احْتَذَى عَلَيْه مِنْ خَالِقٍ مَعْبُودٍ كَانَ قَبْلَه، نهج البلاغة ١٢٥ – ١٢٧، خطبة ٩١.

٦. (قَدْ عَلِمَ السَّرَائِرَ وخَبَرَ الضَّمَائِرَ، لَه الإِحَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ والْغَلَبَةُ لِكُلِّ شَيْءٍ، والْقُوَّةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ)[١].

الرابع: التوحيد في العبادة

وهو: الاعتقاد بأنه لا يستحق أحدٌ العبادة إلّا الله تعالى، فلابد للعبد من أنْ يُخلص في عبادة ربه، قاصداً التعبّد بها خضوعاً لله سبحانه، فبهذا جاءت الرسالات السماوية، وبلّغت الرسل والأنبياء، والا بطلت العبادة، وكانت رياء؛ حيث يُظهر العبدُ جميلَ الفعلِ رغبةً في حمد الناس لا في ثواب الله تعالى)[٢]؛ قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

١. (اعْلَمُوا أَنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ)[٣].

٢. (الْحَمْدُ لِلَّه خَالِقِ الْعِبَادِ...خَرَّتْ لَه الْجِبَاه، ووَحَّدَتْه

---

(١) نهج البلاغة ١١٦، خطبة ٨٦، وأيضاً قوله عليه السلام: (الْحَمْدُ لِلَّه الْعَلِيِّ عَنْ شَبَه الْمَخْلُوقِينَ، الْغَالِبِ لِمَقَالِ الْوَاصِفِينَ، الظَّاهِرِ بِعَجَائِبِ تَدْبِيرِه لِلنَّاظِرِينَ، والْبَاطِنِ بِجَلَالِ عِزَّتِه عَنْ فِكْرِ الْمُتَوَهِّمِينَ، الْعَالِمِ بِلَا اكْتِسَابٍ ولَا ازْدِيَادٍ، ولَا عِلْمٍ مُسْتَفَادٍ، الْمُقَدِّرِ لِجَمِيعِ الأُمُورِ بِلَا رَوِيَّةٍ ولَا ضَمِيرٍ، الَّذِي لَا تَغْشَاه الظُّلَمُ ولَا يَسْتَضِيءُ بِالأَنْوَارِ، ولَا يَرْهَقُه لَيْلٌ ولَا يَجْرِي عَلَيْه نَهَارٌ، لَيْسَ إِدْرَاكُه بِالإِبْصَارِ ولَا عِلْمُه بِالإِخْبَارِ)، المصدر نفسه ٣٢٩، خطبة ٢١٣.

(٢) ينظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ٥٤٧، رقم ٢٢٠٩.

(٣) نهج البلاغة ١١٧، خطبة ٨٦.

الشِّفَاه...لَمْ يَخْلُقِ الأَشْيَاءَ مِنْ أُصُولٍ أَزَلِيَّةٍ، ولَا مِنْ أَوَائِلَ أَبَدِيَّةٍ، بَلْ خَلقَ مَا خَلقَ فَأَقَامَ حَدَّه، وصَوَّرَ فَأَحسَنَ صُورَتَه، لَيْسَ لِشَيْءٍ مِنْه امْتِنَاعٌ، ولَا لَه بِطَاعَةِ شَيْءٍ انْتِفَاعٌ، عِلْمُه بِالأَمْوَاتِ الْمَاضِينَ كَعِلْمِه بِالأَحْيَاءِ الْبَاقِينَ، وعِلْمُه بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَى كَعِلْمِه بِمَا فِي الأَرَضِينَ السُّفْلَى منها)[1].

٣. (لَمْ يُولَدْ سُبْحَانَه فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشَارِكاً، ولَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْرُوثاً هَالِكاً، ولَمْ يَتَقَدَّمْه وَقْتٌ ولَا زَمَانٌ... بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عَلَامَاتِ التَّدْبِيرِ الْمُتْقَنِ، والْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ؛ فَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِه خَلْقُ السَّمَاوَاتِ مُوَطَّدَاتٍ بِلَا عَمَدٍ، قَائِمَاتٍ بِلَا سَنَدٍ)[2].

فيكون استحقاقه تعالى للعبادة؛ بدلالة البراهين العقلية، والدلائل المبثوثة في الآفاق، على أنه المؤثر في ذلك كله؛ بما يكشف عن علمه وتدبيره وقدرته وعظمته، حتى أوجدَ الموجودات، بمختلف أجناسها وأصنافها وأشكالها، وأقدرَها على أدائها لأدوارها الحياتية المتنوّعة، التي صيّرها فيها، ما أتاحها لها، فكانت محتاجةً في بدء ايجادها واستمرار وجودها اليه، ومعتمدةً في ديمومة حركتها الكونية عليه؛

(١) نهج البلاغة ٢٣٢ – ٢٣٤، خطبة ١٦٣.

(٢) المصدر نفسه ٢٦٠، خطبة ١٨٢.

﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾[١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾[٢]، ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾[٣]، كما اختص تعالى بأنه: ﴿مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٤]، ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[٥].

وهو ما يبرهن على عدم قدرة الخلق، بل عجزهم عن نفخ الروح في شيءٍ، أو منعها عنه؛ لأنَّ حتى إعدام أحدٍ لحياة مَنْ يُتوقع طول بقائه، فهو لا يخرج عن علم الله تعالى؛ لأنَّه وحده موجِدُ الحياة، والعالِم بما يحياه المخلوق.

نعم، لمّا خفيَ ذلك على الإنسان، أو لم يؤمن به، ظنَّ بأنه الذي أمات، وهو لا يعلم بأنَّ أقصى قدرة الإنسان هو توقعه لحياة أحدٍ أو موته، ولا يمكنه الجزم بذلك، فلو تجاوز الحدّ، لخاب سعيه.

الخامس: التوحيد في الحكم والحاكمية

وهو الاعتقاد بأنَّ لله تعالى وحده تشريعَ الأَحكامِ وتقنينَها؛ إذ له الحقُّ في ذلك، والولاية بالذات على جميع المخلوقات؛ لأنه خالقها

---

(١) سورة آل عمران، من الآية ١٥٤.

(٢) سورة الطلاق، من الآية ٣.

(٣) سورة هود، من الآية ١٠٧.

(٤) سورة آل عمران، من الآية ١٤٥.

(٥) سورة الإسراء، من الآية ٨٥.

ومدبِّرها، والا فلا ولاية لأحدٍ على غيره إلا بجعلٍ منه تعالى، واستناداً لولايته سبحانه، فمنه تستمد شرعيةُ ولايةِ غيرِهِ، وبذلك يتم تكييفها فقهياً، والا ما كانت لأحدٍ على غيره ولايةٌ بالمفهوم الشرعي؛ ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[2]؛ قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

١. (قَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِه، وعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِه)[3].

٢. (إِنَّه لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِه الْمُؤْمِنُ، ويَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ، ويُبَلِّغُ اللَّه فِيهَا الأَجَلَ ويُجْمَعُ بِه الْفَيْءُ، ويُقَاتَلُ بِه الْعَدُوُّ وتَأْمَنُ بِه السُّبُلُ، ويُؤْخَذُ بِه لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ، حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ ويُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ)[4]، مما يقرِّر حكمَ العقل بضرورة تدبير أمور المجتمع، وإقامة نظام يُؤمِّن مصالح الناس جميعاً؛ لأنَّ استتباب الأمن مقدّم عقلاً على حدوث الفتنة والهرج والمرج، وما تسببه من سلبيات كثيرة.

---

(١) سورة الشورى، من الآية ٩.

(٢) سورة يوسف، من الآية ٤٠.

(٣) نهج البلاغة ٢٦٩، خطبة ١٨٥.

(٤) المصدر نفسه ٨٢، من كلام له ٤٠.

فولاية الحكم والحاكمية لله تعالى أولاً وبالذات، ثم يجعلها سبحانه لغيره؛ قال تعالى: قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِيناً﴾[١]؛ لأنَّ الحُكم: (القَضاءُ في الشَّيْء بأنّه كَذا، أو لَيْس بِكَذا)[٢]، فهو نوع تأثيرٍ وجعلٍ.

ولّما كان تعالى هو المؤثر المُوجد للأشياء، اختص -دون غيره- بالحكم تكوينياً وتشريعياً؛ ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[٣]، ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾[٤]، ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾[٥]؛ فلو كان حكمٌ لغيره، لأمكنه التعقيبُ على حكمِ اللهِ ومعارضتُهُ، وهو ما لم يحدث مطلقاً - مع كثرة إدعاءات المدّعين والمشككين- ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾[٦]، ولا يشاركه فيه غيره.

وإذا نسَبَ تعالى الحكمَ التشريعيَّ إلى غيره؛ كقوله تعالى: ﴿يَا

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٦.

(٢) تاج العروس، الزبيدي ١٦ / ١٦٠.

(٣) سورة الأنعام، من الآية ٥٧، سورة يوسف، من الآية ٦٧.

(٤) سورة الأنعام، من الآية ٦٢.

(٥) سورة الرعد، من الآية ٤١.

(٦) سورة غافر، من الآية ١٢.

دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾[١]، فهو لبيان: أنَّ الحكم أصالةً لله سبحانه، فلا يستقلّ به غيرُهُ إلا بإذنه؛ ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[٢]،﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾[٣]؛ لأنَّ ذلك هو مقتضى استقلال الله تعالى بالحكم، ومن لوازم ثبوت ذلك له بالأصالة، وإنّما يحكم غيره لكونه مأذوناً بالحكم من قِبل الله تعالى[٤].

السادس: التوحيد في الطاعة

وهو: الاعتقاد بأَنَّ الله تعالى مستحقٌ للطاعة؛ لكونه الحاكم الولي، فتكشف مخالفةُ العاصي عن عدم إخلاصه التوحيد لله تعالى في الحكم، وأنَّه لم يؤمن بأنَّ الله ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾[٥] وإلّا لما عصاه في مخالفة أَمرٍ أو نهيٍّ، وما دام لم يطع العبد فهو عاص لله تعالى، لكونه إما مطيعاً أو عاصياً، وليس للعبد وصف ثالث، بل قد يوصف عصيانه ببعض درجات الشرك، وذلك إذا لم يتيقن -المخالفُ حين مخالفته- باستحقاق

---

(١) سورة: ص، من الآية ٢٦.

(٢) سورة الأعراف، من الآية ٨٧.

(٣) سورة التين، الآية ٨.

(٤) ينظر: الميزان، السيد محمد حسين الطباطبائي ٧ / ١١٦.

(٥) سورة الأنعام، من الآية ٦٢.

الله تعالى للعبادة والطاعة دون غيره، بل يكون ظاناً بـذلك، فـلا ينجـو من بعض درجات الشرك –والعياذ بالله–؛ ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَـهَ إِلَّـا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ وكِيـلٌ﴾[1]، وأمـا لـو تيقن بذلك ثمّ خالَفَ يقينَهُ فهو مشرك؛ بسبب مخالفته لتشريع الله تعالى، وعدم التزامه عملياً بما اعتقـده مـن اسـتحقاق الله تعـالى للطاعـة دون غيره؛ ولذا قد خالَفَ تشريعه؛ قَالَ الإمـام الصـادقعليه السلام: (خَـفِ اللَّـه كَأَنَّكَ تَرَاه وإِنْ كُنْتَ لَا تَرَاه فَإِنَّه يَرَاكَ؛ فَإِنْ كُنْتَ تَرَى أَنَّه لَا يَـرَاكَ فَقَـدْ كَفَرْتَ، وإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّه يَرَاكَ ثُمَّ بَرَزْتَ لَه بِالْمَعْصِيَةِ، فَقَدْ جَعَلْتَه مِـنْ أَهْوَنِ النَّاظِرِينَ عَلَيْكَ)[2].

(١) سورة الأنعام، الآية ١٠٢.

(٢) الكافي، الشيخ الكليني ٢ / ٦٧، ح ٢.



من مميزات التوحيد

من مميزات التوحيد

وقد كان من مميزات التوحيد الإلهي: إنَّه لم توجب أقسامُهُ ومراتبُهُ تعدداً فيه، بل بقي التوحيد مقسمَها، جامعاً بين وحدة اللحاظ وتعدده، فافترقت وحدته تعالى عن وحدة العدد؛ إذ أنَّ واحد الأعداد: هو ما يمكن تكرر وجوده، حتى اختلف بذلك عن سائر الأعداد، وأما أنَّ الله تعالى واحدٌ، فيعني أنه لا يفترض له ثان، ولا يتكرر وجودُهُ، فلا تعدد له مع وحدته؛ حيث إنَّ وحدته ليست بعددية؛ إذ لو كان مما يتكرر وجوده كالواحد العددي، لاستلزم احتياجه الى حدود المكان والزمان، فكان محدوداً متحيّزاً بحيّز.

لكنّه تعالى (الأَحَد بِلَا تَأْوِيلِ عَدَدٍ، بَانَ مِنَ الأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا والْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وبَانَتِ الأَشْيَاءُ مِنْه بِالْخُضُوعِ لَه والرُّجُوعِ إِلَيْه، مَنْ وَصَفَه فَقَدْ حَدَّه، ومَنْ حَدَّه فَقَدْ عَدَّه، ومَنْ عَدَّه فَقَدْ أَبْطَلَ أَزَلَه)[1]، (لَا يُشْمَلُ بِحَدٍّ ولَا يُحْسَبُ بِعَدٍّ، وإِنَّمَا تَحُدُّ الأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا، وتُشِيرُ

(١) نهج البلاغة ٢١٢، خطبة ١٥٢.

الآَلَاتُ إِلَى نَظَائِرِهَا)[١]، و(كُلُّ مُسَمًّى بِالْوَحْدَةِ غَيْرَه قَلِيلٌ)[٢].

وبهذا يتضح الفرقُ بين الوحدة الإلهية الحقّة " العَقَدية"، والوحدة الرياضية العددية؛ فالله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[٣]؛ قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: (اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وأَنْتَ الْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ، ولَا يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ؛ لأَنَّ الْمُسْتَخْلَفَ لَا يَكُونُ مُسْتَصْحَباً، والْمُسْتَصْحَبُ لَا يَكُونُ مُسْتَخْلَفاً)[٤]، فكانت حقيقة وحدته تعالى مختلفة عن الوحدة عدداً؛ حيث لا يمكن لغير الله تعالى، الجمع بين كينونته مع المسافر، وبين وجوده مع الأهل الحاضرين في بلدهم، وإنّما اختص تعالى بحفظه ورعايته للجميع في وقت واحدٍ، وإنْ تعدد المكان.

وما ذاك إلّا لأنَّ الاعتقاد بوحدته تعالى، مختلف عن ادراك وحدة غيره من الكائنات.

قراءةٌ في صفحات البرهان الكوني

إنَّ المتأمل في كلام الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام حول التوحيد، يجد اهتماماً واضحاً باستعراضه للبراهين العقليّة ذات القاعدة

---

(١) نهج البلاغة ٢٧٣، خطبة ١٨٦.

(٢) المصدر نفسه ٩٦، خطبة ٦٥.

(٣) سورة الشورى، من الآية ١١.

(٤) نهج البلاغة ٨٦، رقم ٤٦: من كلام له عند عزمه على المسير.

الفطريّة؛ لكونها أقرب الى عقل المتلقي وقلبه إذا تأملها بعد رحلة تفكّره في مظاهر الإبداع الكوني الذي يبرز أمامه في أكثر من موقع ومجال، فيشاهد دقّة ما خلَقَ الله تعالى وما أبدعه من صور المخلوقات وصفاتها، بما يقوده الى محطة الإيمان بالله الذي أوجدها من العدم، وصيّرها متاحة للجميع، ليكتسبوا بأنفسهم المعلومات المطلوبة لتحقيق الاكتفاء الذاتي المستند الى أنماط من البرهنة العقلية الفطرية؛ ومن نماذج ذلك قوله عليه السلام:

١. (مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ، ومِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ، ومَعَايِشَ تُحْيِيهِمْ، وآجَالٍ تُفْنِيهِمْ، وأَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ، وأَحْدَاثٍ تَتَابَعُ عَلَيْهِمْ)[(١)].

وهو ما يبعث على التساؤل هل أوجدتها الصدفة؟، أم أوجدها موجدٌ؟، ومَنْ هو؟.

فلو كان سوى الله تعالى، فمَنْ هو، وما هي دلائل وجوده وقدرته؟.

وإنْ كان هو الله تعالى، فقد ثَبُتَ المطلوب؛ لأنَّه يستحيل وجود السماء والأرض والإنسان بجميع حالاته من دون موجد؛ لأنَّه كما يذكر تشارلز دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢م): (من الصعب

---

(١) نهج البلاغة ٤٣، خطبة ١، السقف: السماء، المهاد: الأرض، الأوصاب: الأوجاع، ينظر: العين، الفراهيدي ١٦٨/٧.

جداً، بل من المستحيل أنْ نتصوّر كوناً هائلاً ككوننا، وبه مخلوق يتمتع بقدراتنا الإنسانية الهائلة، قد نشأ في البداية بمحض الصدفة أو الضرورة، وبمقتضى هذا التصوّر أجد نفسي مجبراً على البحث عن المسبِّب الأول)[1].

وليس هو إلّا الله لأنَّه هو مَنْ دلَّ على وجوده وقدرته بما أبدعه من خلق الكائنات وما أودعها من عجائب خصائصها التي ما زالت طيلة حقب الزمان وتعدّد المكان على أنساقها المحكمة تؤدي أدوارها الحياتية من دون خلل أو توقف طيلة المدة المديدة من عمر الكون[2].

وأمّا غيره فلم يُتفق على هويته ومَنْ يكون؟، هل هو الزمن أو الصدفة الذكية؟، وكلاهما غير عاقل، فهل يُعقل أنْ يخلُقا –بالفعل–

(١) ينظر: كيف بدأ الخلق، د. عمرو شريف ١٧٦، ط:٥، مكتبة الشروق الدولية ١٤٣٧هـ – ٢٠١٦م، للاطلاع على مصدره.

(٢) (لقد تمَّ مؤخراً تقدير عمر الكون باستعمال ثلاثة معالم هي: ثابت هابل، الكثافة الكتلية للكون، والثابت الكوني، وقد اتضح أنَّ عمر الكون يتراوح بين ٨، ١١ – ١٥ مليار عام، أي أنَّ عمر الكون هو ٤، ١٣ + ٦، ١ مليار عام)، الفلك (موسوعة ومضات اعجازية)، خالد فائق العبيدي ١٧، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية–بيروت ١٤٢٦ هـ–٢٠٠٥ م، نقلاً عن الإيمان والتقدم العلمي، د. هاني رزق / د. خالص جلبي ٢٠، ط: الأولى، دار الفكر بدمشق ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م، كتاب الطبيعة للمؤلفين هاريس وجماعته ١٩٩٨ م.

إنساناً عاقلاً قادراً على التفكير والإبداع، ومشاركاً بفاعلية في مختلف مجالات التطوير؟.

وإذا كان الخالق غير الزمن والصدفة، فما محدّدات هويته؟، ولماذا لم يدّع أحدٌ -ولو مرة واحدة- بأنَّه صمّم هذا الكون، أو شارَكَ في خلق بعضه؟.

وعليه فيكون القول بأنَّ الخالق هو غير الله، من النظريات غير المقترنة بالدليل، (وغالباً ما تتسبّب النظريات العلمية في إثارة المزيد من الأسئلة؛ إذ أنَّ العلم قد قدَّم لنا نظرية مفادها أنَّ " انفجاراً عظيماً " كان هو سبب بداية الكون، لكنّنا -وبغريزتنا- لا بد أنْ نسأل: " وماذا كان قبل ذلك؟ "، أو " وما الذي تسبّب به؟ " ولكنّ الفيزيائيّين يشرحون أنْ لا شيء ممّا نفكّر به -ولا حتى الزمن- كان موجوداً قبل ذلك الوقت)[١]!.

ولهذا فلا بدّ من إجابة واضحة للسؤال عن حال الكون قبل وجود الزمن أو الصدفة الذكية، ولأنَّه لم يُجب أحد من المهتمّين بهذا الشأن لحدّ الآن بعد مرور هذه المدّة المديدة من عمر الكون، فقد أصبح (اليوم يتقبّل غالبيةُ الفلاسفة أنّه لا يمكن إثبات بعض

(١) موسوعة الفلسفة، ماركوس ويكس، المستشار: ستيفن لو، ٥٥، شركة المستقبل الرقمي.

الأشياء بالعقل، وأنّه لا يمكن للعلم والفلسفة أنْ يُفسرا كلّ شيء)[١]؛ وذلك لعلمهم بعجز العقل والعلم والفلسفة عن الإثبات والتفسير، وإنَّها دالّة على أنَّ الله خالق الزمن والإنسان وغيرهما من الكائنات.

٢. (فَتَبَارَكَ اللَّه الَّذِي لَا يَبْلُغُه بُعْدُ الْهِمَمِ، ولَا يَنَالُه حَدْسُ الْفِطَنِ، الأَوَّلُ الَّذِي لَا غَايَةَ لَه فَيَنْتَهِيَ، ولَا آخِرَ لَه فَيَنْقَضِيَ)[٢].

ويأتي هذا المقطع في سياق تحفيز الإمام عليه السلام للمتلقي ليأخذ وقته الكافي متأمِلاً في بعض براهين التوحيد؛ حيث لا يمكنه –مهما حاولَ– أنْ يعرف أكثر من حقيقة وجود الله قبل الأشياء وبعدها، بما يقود الى الإيمان بوجود الخالق، وأنه هناك إله[٣]؛ لأنَّه النتيجة

(١) موسوعة الفلسفة، ماركوس ويكس، المستشار: ستيفن لو، ١١٣.

(٢) نهج البلاغة ١٣٨، خطبة ٩٤.

(٣) خاضَ الفيلسوفُ البريطاني أنتوني ريتشارد فلو (١٩٢٣م – ٢٠١٠م) – من تيار الفلسفة التحليلية، التي تقوم بتحليل تراكيب اللغة، لاستكشاف الواقع، ولا تؤمن بما وراء الطبيعة؛ لأنه لا يشير الى واقع محسوس مادياً؛ وعلى ذلك فلا تؤمن بوجود الإله –تجربةً استمرت أكثر من خمسين سنة في الإلحاد؛ فأصدر أكثر من ثلاثين كتاباً، واشترك في عدة مناظرات حول فكرة الإلحاد، فهو من أهم منظّري الإلحاد في العالَم، وله طريقته العلمية، المدّعمة بقوانين الطبيعة لإثبات آرائه، ثم تخلى عن ذلك كله، بعد فحصٍ عميقٍ للأدلة، حتى أعلن في مناظرة فلسفية عام (٢٠٠٤م) عن تحوّله الى الإيمان

الطبيعية لرحلة البحث في صفحات البرهان الكوني، وما تعرضه للعقول من مظاهر القدرة الإلهية، فسبحان الله:

٣. (الَّذِي بَطَنَ خَفِيَّاتِ الأَمُورِ، ودَلَّتْ عَلَيْه أَعْلَامُ الظُّهُورِ، وامْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ الْبَصِيرِ، فَلَا عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَه تُنْكِرُه، ولَا قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَه يُبْصِرُه، سَبَقَ فِي الْعُلُوِّ فَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْه، وقَرُبَ فِي الدُّنُوِّ فَلَا شَيْءَ أَقْرَبُ مِنْه، فَلَا اسْتِعْلَاؤُه بَاعَدَه عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِه، ولَا قُرْبُه سَاوَاهُمْ فِي الْمَكَانِ بِه، لَمْ يُطْلِعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِه، ولَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِه، فَهُوَ الَّذِي تَشْهَدُ لَه أَعْلَامُ الْوُجُودِ عَلَى إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي الْجُحُودِ)[1].

بالإله، وألّف كتاب" هناك إله" بعدما كان يرى" ليس هناك إله"؛ بعد مراجعة مفاهيمه الفلسفية والعلمية، وقد عرضه د. عمرو شريف في كتاب "رحلة عقل"، التي صدرت ط: العاشرة عن دار النشر: نيو بوك – القاهرة، عام ٢٠١٧م، كما ترجمه: د. صلاح الفضلي، وصدرت ط: الثانية عام ١٤٣٨هـ ينظر: " هناك إله" مقدمة المترجم ٣ – ٤.

وأصدر د. عمرو شريف (أستاذ الجراحة العامة في كلية الطب–جامعة عين شمس) عام ٢٠١٥م، ط: الأولى من كتابه " الوجود رسالة توحيد"، وكتاب "خرافة الإلحاد"، ط: الثامنة ٢٠١٧م، وكتاب " الإلحاد مشكلة نفسية"، ط: الأولى عام ٢٠١٦م، وكتاب" كيف بدأ الخلق"، ط: الخامسة ٢٠١٦م.

وصدرت عام ٢٠١٦م، ترجمة: د. صلاح الفضلي، كتاب " لغة الإله" لعالِم الجينات الأمريكي: فرانسيس سيلرز كولينز (١٩٥٠م).

(١) نهج البلاغة ٨٧، خطبة ٤٩.

وإنَّ التأمل في هذه الصفات كافٍ في حصول اليقين بأنَّ خالق الكون هو الله الذي لا يشبهه أحدٌ:

٤. (إِنَّه لَبِكُلِّ مَكَانٍ وفِي كُلِّ حِينٍ وأَوَانٍ، ومَعَ كُلِّ إِنْسٍ وجَانٍّ، لَا يَثْلِمُه الْعَطَاءُ ولَا يَنْقُصُه الْحِبَاءُ، ولَا يَسْتَنْفِدُه سَائِلٌ، ولَا يَسْتَقْصِيه نَائِلٌ، ولَا يَلْوِيه شَخْصٌ عَنْ شَخْصٍ، ولَا يُلْهِيه صَوْتٌ عَنْ صَوْتٍ، ولَا تَحْجُزُه هِبَةٌ عَنْ سَلْبٍ، ولَا يَشْغَلُه غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ، ولَا تُولِهُه رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ، ولَا يُجِنُّه الْبُطُونُ عَنِ الظُّهُورِ، ولَا يَقْطَعُه الظُّهُورُ عَنِ الْبُطُونِ، قَرُبَ فَنَأَى، وعَلَا فَدَنَا، وظَهَرَ فَبَطَنَ، وبَطَنَ فَعَلَنَ، ودَانَ ولَمْ يُدَنْ، لَمْ يَذْرَأِ الْخَلْقَ بِاحْتِيَالٍ، ولَا اسْتَعَانَ بِهِمْ لِكَلَالٍ)[1].

فهل يشبهه أحدٌ بهذه الصفات؟؛ لأنَّها لم تكن لغيره ولا تكون، وهي صفات إذا عرفها المتلقي –من مختلف شرائح الناس– ستكشف له ما خفي عليه من التوحيد بأداء مباشر واضح؛ لأنَّها تعتمد في دلالاتها على مرتكزات النفوس من بديهيات العقل ومسلّمات الفطرة، فيقرأ كلُ أحدٍ صفحةَ هذا الكون بجميع حروفها وسطورها، وما فيها من آثار قدرة الله تعالى وعظمته؛ حيث طوّع المخلوقات –إرادياً– لإنجاز المهام الموكلة اليهم، حتى أنَّه لم يتخلّف أحدٌ عن

(١) نهج البلاغة ٣٠٩، خطبة ١٩٥.

المسيرة الكونية، بما يدلّ على وجود مدير يدبِّر نظام الكون، فتنتظم -آثار القدرة- في سلسلة براهين علمية على التوحيد، يفهمها المتلقي العاقل بفطرته، ويُذعن لحقيقة وجود الخالق تعالى، ويعرف:

الدين رؤية كونية

إنَّ الدين رؤية كونية ذات فلسفة واقعية، ومنظومة أخلاق إنسانية، له أصولٌ ومبادئ عقلية، تدل على أصالته، وتشهد لدّقة رؤيته في قضايا الحياة، فتوثِّقه حقيقةً ذات جذور في وجدان الإنسان، وتمنحه طابعاً من النقاء الفِطري يمتاز به عن الأفكار التي تحاول مقاربة الدليل، إلّا أنها لم تُثبِت قربها منه، بقدر ما صوّرت معاناةً نفسيةً، وصدمةً أثّرت في صاحبها، حتى لم يقوَ على تجاوز آثارها التي حددت مسارَهُ الفكري في الحياة.

دوكينز ابتدأ مع « شيء مبهم»، وانتهى الى «وهم»!!

قال دوكينز: (سمعت مرةً شبحاً، وكأنه يتلو صلوات، وكنت سمعت الكثير من القصص عن الرهبان في البيوت القديمة، وأصابني الذعر، ولكن نهضت من السرير، وزحفت نحو مصدر الصوت، وفجأة فهمت: كانت الريح تعصف من خلال ثقب المفتاح، لتخلق صوتاً، استخدمه برنامج المحاكاة في عقلي، ليبني نموذجاً لصوت رجلٍ يتلو الصلوات

بجديّة، في مناسبة أخرى كنت في نفس العمر رأيت وجهاً عملاقاً وشريراً بشكلٍ لا يوصف، يحدّق من النافذة في بيتٍ عاديٍّ في قريةٍ على البحر، اقتربت منه بهلع؛ لأتبين الأمر: شيءٌ مبهمٌ...)[١].

وقد (تركت قصةُ صديقِهِ انطباعاً قوياً عنده في فترة شبابه)[٢]، فزادت لديه شحنات رفضه للدين، حتى أنتجت خصومة شخصية بينهما، في ظل انحيازه الواضح للإلحاد، فألغى جميع احتمالات وجود الإله، في الوقت الذي يفترض بحساب الاحتمالات أنّه احتمال قائم، وله المطالبة بضمانات كونية لإثبات أنّها من الحقائق الماثلة للمتأملين؛ حيث يمكن لأي أحدٍ اختيار أيَّ مخلوقٍ، ليُراقب كيفيةَ نموه وتأثيرَه بمحيطِه وتأثّرَه بغيره، ثم يحكم هل تسير المخلوقات بأنظمة دقيقة، ومعادلات رياضية ذكية؟، ومعه فلابد من وجود خالق لها.

---

(١) ينظر: وهم الإله، ريتشارد دوكينز ٩٣ باختصار، ترجمة بسام البغدادي، الطبعة العربية الثانية، ريتشارد دوكينز: (كلينتون ريتشارد دوكينز (١٩٤١ - ...)، عالم الأحياء التطوري البريطاني، عالم الأخلاق، وكاتب العلوم الشعبية الذي أكد على الجين بعدّه القوة الدافعة للتطور، وأثار جدلًا كبيرًا من خلال دعوته المتحمسة من الإلحاد)، ينظر: موقع الموسوعة البريطانية https://www.britannica.com/biography/Richard-Dawkins

(٢) المصدر نفسه ٨٩ باختصار.

أم أنها وُجِدت صدفةً؟، لكن كيف تكون صدفةً؟، مع وجود هذا النظام الدقيق في حركة الكائنات وسيرها بما يعمِّر الأرض، وينمِّي الطاقات، ويتيح الانتفاع منها لمختلف المخلوقات، وما لهذا الحراك من دلالةٍ على إرادة فاعلٍ عاقلٍ قادرٍ على ذلك كلّه، فمَنْ هو؟:

هل هو الله تعالى؛ كما تدل عليه آثار القدرة.

أو غيره؟، فمَنْ هو؟، ولماذا لم يبرهن على وجوده؟!، كما دلَّ اللهُ تعالى عبادَهُ على وجوده، حتى صار ما خلَقَهُ وأتقن صنعه، من براهين التوحيد الناطقة بوجود خالقها؛ قال تعالى:

١. ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1]؛ أي جعلكم قادرين على عمارة الأرض، ومكّنكم من عمارتها، والمراد من استعمركم هو: جعل القادر يعمِّر الأرض[2]؛ فإنَّ في قابليةِ الأرضِ للتعميرِ، وقدرةِ الإنسانِ على إعمارها بما ينفعه، دلالة على وجود خالقٍ للكون؛ إذ حدوث الإنسان بعد أنْ كان عدماً، وجعله عاقلاً مختاراً، دليلٌ على وجود مَنْ خَلَقَهُ كذلك، وليس هو إلّا الله تعالى؛ إذ لو كان غيره، لدلَّ على وجوده، لكنّه لم يحدث ذلك مطلقاً.

---

(١) سورة هود، من الآية ٦١.

(٢) ينظر: التبيان، الشيخ الطوسي ٦ / ١٦.

مضافاً الى أنَّ خلق الأرض بما يجعلها مطابقة للمصالح موافقة للمنافع، دليلٌ آخر على وجود الخالق الحكيم تعالى[1]، الذي يعين مَنْ احتاج مساعدته حتى لو لم يؤمن به كإله خالق له.

فجميع ذلك يؤدي بالمتأمل الى الإيمان بوجود الإله الخالق القادر على تحقيق ما يعجز الإنسان عنه لنفسه فضلاً عن غيره؛ وذلك لوضوح دلالة هذه المنظومة الكونية بمفرداتها المتنوّعة واختلاف أدوارها، على وجود الخالق تعالى.

٢. ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ، فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ، كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ، قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ، وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[2].

(١) ينظر: تفسير الرازي ١٨ / ١٧، ط:٣.

(٢) سورة يونس، الآيات ٣١ – ٣٦.

فقد سلّطت هذه المحاورة الأضواءَ على مفاصل عدّة ذوات فاعليّة في تكوين الإنسان وإدامة حركته في الأرض، من الخلق والرزق والهداية، وذلك من خلال إثارة التفكير عن مصدر طاقة هذه الفعاليات كلّها؟ هل وُجدت بنفسها لنفسها؟، أم بفاعل لها؟ ومَنْ هو الفاعل؟ فإنْ كان سوى الله فمَنْ هو؟،ولو كان هو الله، فهو المطلوب.

٣. ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ، قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ، قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ، بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[١].

وقد تضمّنت ثنائية الحوار هذه ما يكشف عن احترام الدين للآخر الذي يعمل على التثقيف لتصوّراته المعاكسة، لكن لا خيار سوى إدامة الحوار العلميّ بما يدلّه على التوحيد الذي انعقد عليه قلبه بالفطرة؛ ولذلك يجيب بتلقائية عن أسئلة لَمَنْ المُلك والقدرة؟،

(١) سورة المؤمنون، الآيات ٨٤ – ٩٢.

بجوابٍ فطريّ موحّد "سَيَقُولُونَ لِلَّهِ"، بما يعني أنَّ نقاء الفطرة ما زال يحتفظ بنسبة عالية، بحيث لا تنجح معها محاولات التغيير، فيلزم العمل على مخاطبة الإنسان بما يفهمه بفطرته الإنسانية؛ لأنّها ضمانة لعودة الإنسان الى المسار الصحيح –مهما ابتعد عنه–؛ ولذا كان التذكير بالمعاد يوم القيامة، الذي لا يعلمه إلّا الله؛ كما في قوله تعالى:

٤. ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ. فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾[1].

حيث تمّ التحذير من سوء عاقبة التغافل، وعدم الاستعداد المناسب لهذا الموعد الحتمي الذي لا يعلمه إلّا الله تعالى، وهو ما يدعو العاقل الى تأمين موقفه بالإنابة الى الله والاستغفار؛ لأنّه إذا قامت القيامة فلا مجال للتدارك عندئذ.

فكان لزاماً على الإنسان التفكّر في دلائل القدرة الإلهية ومؤشراتها، التي تقوده الى الاعتقاد الواعي بالتوحيد، الثابت ببراهين وأدلة متناغمةٍ مع أصول المنهج العلمي، وليست مجرد نقدٍ فلسفي؛ كما هي طبيعة الفكر الآخر، الذي تمت صياغته كحقيقةٍ مطلقةٍ، وأنَّ ناقدَها متخلِّفٌ فكرياً، لكن يشهد الواقع بغير ذلك.

---

(١) سورة محمد، الآيتان ١٨ – ١٩.

فـ(آراء دوكينز، ليست كلّها موضع اتفاق، وفيها أحياناً ما هو مثار خلاف بين العلماء، على الرغم مما يبذله في البرهنة على آرائه بكل السُبل العلمية، وثمة انتقادات توجّه له من المدارس الداروينية المختلفة، ماديةً أو مثالية، ومن أهم الانتقادات التي وُجِّهت لآرائه: أنها لا تفسر كيف بدأ الانتخاب الطبيعي، ودوكينز يقرّ بوجود بعض غموض، لكنّه يرى أنَّ هذا لا يؤدي الى تفنيد النظرية.

كذلك هناك مَنْ نقَدَ آراءه باعتبار أنَّ فيها ما يطرح وجود حتمية وراثية، مبعثها نظرة أحادية، لا تكاد ترى في الحياة الا عوامل الوراثة والجينات)[1].

بما ينتج أنَّها مجموعة رؤى وفرضيات تقوم على:

١. افتراض وجود فعل ذاتي للقانون الطبيعي، واستغنائه عن المصمم المدبِّر.

٢. عدم التمييز بين دور القانون الطبيعي، وما يعنيه من ظواهر طبيعية كما هي عليه، وبين دور القانون الفيزيائي، وما يعنيه من فهمٍ شخصٍ لتلك الظواهر.

---

(١) ينظر: العلم والحقيقة، ريتشارد دوكينز، ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي، ٨ – ٩ من مقدمة المترجِم، المجلس الأعلى للثقافة–القاهرة ٢٠٠٥ م.

والفرق بينهما كالفرق بين احتراق الخشب بالنـار، وبـين تحليـل ذلك الاحتراق بأنه تفكّك جُزيئـات الخشـب وتأكسـدها، لتتكـوّن لاحقاً مركبات جديدة أخرى، فالأول -الاحتراق- من الثابت؛ لأنه قانون معزَز بالوجدان والبرهان، والآخر -تحليـل الاحتـراق- مـن المتغيّر؛ لأنه اكتشافٌ قد يُطوّر مسـتقبلاً أو يُلغـى أصـلاً، فـاختلف القانونان جذرياً، وينتج عن عدم تمييز خصائصهما:

توهمُ قدرةِ القانون الطبيعي على الفعل ذاتياً، مع أنّه عـاجز عـن ذلك تلقائياً؛ لاحتياج الطبيعة الى الفاعل القادر العالِم الـذي ﴿لَـيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1]؛ لأنه يفعل الفعل فيكوّنه، والقانون الطبيعـي يصـف الحدث الكائن؛ قال الإمامُ أميرُ المؤمنينعليه السلام: (عَجِبْتُ لِمَنْ شَكَّ فِي اللَّه، وهُوَ يَرَى خَلْقَ اللَّه...وعَجِبْتُ لِمَنْ أَنْكَرَ النَّشْأَةَ الأُخْرَى، وهُـوَ يَرَى النَّشْأَةَ الأُولَى)[2]؛ إذ يدل كلٌ منهما على وجود المؤثر، فكيـف يُنكره عاقل أو يشكك فيه؟!، الا أنْ يعترضه حاجز (الإلحاد العـابر، أو الانتقامي، أو التمردي، أو العُصابي، أو القصور العقلي)[3]، فيُلغـي

---

(١) سورة الشورى، من الآية ١١.

(٢) نهج البلاغة ٤٩١، حكمة ١٢٦.

(٣) ينظر: الإلحاد مشكلة نفسية، د. عمرو شريف، ١٠ – ١٢ – ١٣، نشر: نيو بوك – القاهرة ٢٠١٦م.

أمامه جميع الدلائل الكونيــة، ولا يقرأهــا توحيــدياً، أو يشــكك في دلالتها على ذلك، مع أنَّ هذه الدلائل تستنهضه للتأمــل، وتســاعده على أنْ يخطو في طريق المعرفة، لكن يقطع عليه الطريق:

من أسباب التشكيك ودوافعه

١. اهتمامه بالمنهج الحسي، وإهماله المنهج العقلي؛ فيبدأ بتحليــل ما يحيط به مادياً، ويناقشه فيزيائياً، ليزيح بذلك عالَم ما وراء المادة كلّه، ولا يعتني بآثار وجودِهِ وهي محسوسة لِمَنْ تأملها، ولا يقرأ فيها الدلالات على وجود مركز سيطرة للكون، له دلائل غــير متناهيــة، ورسائل متواصلة تؤكد البرهان الكوني، المنبســط في جميــع الأنحــاء الوجودية؛ لاجتذاب المتأملين في منظومة الخلــق، بمــا يفــوق قــدرة الصدفة على إنتاجه، لو لم يكن خالق قادر قد أوجد ذلك كلــه؛ بمــا يمثِّل مجموعة الحقائق المذهلة التي يستحيل وجودها عشوائياً أو عبر مراحل تطورية؛ لمــا هــو المحســوس مــن دقتــها وإحكــام نظامهــا وخصائصها الفائقة، مثل:

أ- البصــمة الوراثيــة ودور الحمــض النــووي في تحديــد هويــة الشخص.

ب- تكوين الدماغ وما يحتويه من المخ والمخيخ وســواهما، ومــا

يتصل به من خلايا وأنسجة، وما فيه من غدد مع ما تفرزه من الهرمونات.

ت- الذرة ومكوّناتها وخصائصها ونماذجها، مع ما توفره من الطاقة، وما لها من أدوار كبرى في إدامة حركة قوانين الطبيعة بمعادلاتها الثابتة.

ث- جماليات بل تكوينات البشر والحيوانات والنباتات والمعادن والمجرات وغيرها، مما يكشف عن وجود مصممٍ لخرائطها المتسعة باتساع الكون، يديرها ويدبِّرها وحده، ولم تكن من أنفسها؛ بعد دلالة سيرها المنضبط بأنظمة دقيقة على ذلك، مع ما يدل عليه تواصل جهود المتخصصين في الحقول المختلفة، في البحث والاستكشاف، ثم تطوير نتائجهم الأولى بأخرى أحدث؛ بما يشهد بأنها جهود المتناهي لإدراك حقائق غير متناهية.

٢. عدم استيعاب المشكِّك لفلسفة وجود الشرور، أو أسباب الفوارق الطبقية بين الناس، وغيرهما ممّا يقوده الى التشكيك بوجود الإله قبل البحث العلمي في الأسباب والنتائج، فيتسرّع بالاعتماد الكلّي على فهمه المادي للأمور، ويفسِّر ذلك على أنَّ الإله قد جبَرَ الخلق على ارتكاب الشرور، والتسبّب بأنواع الأذى كالمرض والفقر

والتشرّد والاضطهاد وغيرها من آلام، مع أنَّ الإلـه الخـالق القـادر على خلقه قد زوّدهم بما يميِّزون به النافع من الضار، ولم يشأ مطلقـاً إجبار أحدٍ وقسره على خيار محدّد، بل أتـاح لـه خيـارات عـدّة، وزوّده بالعقل ليقتدر به على حُسنِ الاختيار.

فلو أساء أحدٌ الاختيار، كان -في نظـر العقـلاء- هـو مَـنْ آذى نفسه بنفسه؛ كما أنَّ العقلاء لا يتهمون القانون بظلم أحـدٍ مـات أو أصابه أذى بسبب حـادث سـيرٍ -مـثلاً-، مـع أنَّ أدوات الحـادث كالسيارة مقننٌ لاستعمالها بقوانين ولوائح رسمية، فلها غطاء قـانونيّ، لكن لا أحد ينسب الحادث الى غير مسبِّبه، بل يُلام علـى تسـبيبه ذلك لنفسه؛ لأنَّ الشرور مسبَّبات عن سوء استخدام الإنسان؛ بدليل حصولها لأحدٍ دون غيره، بمـا يكشـف عـن وجـود دور للإنسـان الفاعل في حصول الشرور له أو لغيره، وعليه فلا معنى لإلقاء اللـوم على أحدٍ آخر غير المتسبّب بحصولها، وإنّما استحقّ اللوم والمحاسبة لكونه قد فَعَلَ ذلك باختياره، حتى كان سبّباً له.

مضافاً الى أنَّ وصـفها بالشـرور أمـرٌ نِسـبيّ؛ إذ يصـفها بـذلك الشخص المتضرِّر منها وليس مطلقاً؛ فبعض أنواع الميكروبات مفيدة في إنتاج المضادات الحيوية، أو المصنوعات الغذائيـة بـل الصـناعية، كما تدخل نِسبة محدّدة من بعض السموم، في علاج بعض الأعراض

الصحية، ومعه فلا يصح توهم عبثية وجود بعض الكائنات، فضلاً عن أنْ تقود الى التشكيك بوجود الإله.

٣. عدم معرفته ببعض المفاهيم أو المصطلحات مثل: الدِين، التوحيد، العليّة والسببية، واجب الوجود وغيرها فيخطيء عند تصوّر معناها أو في تطبيقها خارجاً، بما يحتاج معه الى الاستيضاح والتصحيح، إلّا أنّه –غالباً– لا يحاول ذلك، ولا يهتم بتحديث قاعدة بياناته ليتعرّف على أنَّ المتناهي محدودٌ أمام اللا متناهي، بمعنى أنَّ الإنسان–مهما بلغ علماً– فهو محدود المعرفة؛ إذ تنتهي الى حدّ يجهل ما بعده من معلومات البشر ممَنْ هم أكثر منه معرفةً، فضلاً عن محدودية قدرته أمام اللا متناهي من قدرة خالقه الذي أوجده من العدم، وصيّره قادراً على معرفة الأشياء بما خلقه له من العقل؛ ليبني مواقفه في الحياة –قبولاً أو رفضاً– على أسس صحيحة، ويبتعد عن تحكيم الأنا، ويتجرّد عن الرفض المشخصن؛ ليقترب من الثوابت الإنسانية التي تؤهله لاختيار الصواب، فلا يستعجل الحكم –سلباً أو إيجاباً– إلّا بعد سؤال المتخصّص.

نعم، قد يُسجّل على بعض محاولات الإجابة عن الشبهات أنّها لا تخلو عن ضعف الأداء؛ بسبب تفاوت قابليات المجيبين في قدرتهم على إقناع الآخر، إلّا أنَّ هذه المحاولات –مع ضعفها– كافية لإضاءة

الطريق نحو المسار الصحيح، الـذي يلـزم المتلقـي متابعتـه، وعـدم إهماله؛ ليتنامى الفكر، وتترسخ الحقائق ولا تـذهب معالمهـا بسـبب عزوف كثير من الناس عن السؤال أو البحث العلمي.

٤. توتره النفسي بسبب تصرّفٍ مّا من أحـدٍ[١]، فيـنعكس سـلباً على توازنه الداخلي عند حكمه على الأشـياء، ومناقشـته للمسـائل الفكريّة، التي تحتاج الى دراية بخارطة طريق الوصول اليها، حـتى أنّـه لا يستنطق البرهان الكوني المتاح للناظرين، بل يلجـأ الى ترديـد مـا

(١) حيث تؤثر العوامل النفسية – الآتية – بالأشخاص سـلبياً، بمـا يـنعكس علـى طبيعة تعاطيهم مع قضايا الحياة، الفكرية أو غيرها، حتى يبدو واضحاً التشنج النفسي وتطرّف الآراء من هذه الشريحة؛ وذلك بسـبب معانـاتهم مـن الألم النفسـي والفـراغ الروحي نتيجة هذه العوامل، التي منها: ١. التقصير الأبوي، الذي عاناه كثير، ومنـهم: فرويد، أنتوني فلو، ٢. الارتباط غير الآمن بالأمهات، الذي عانى منه مـثلاً: فـولتير، فريدريخ نيتشه، ٣. الاختلال الأُسري، الذي عـانى منـه مـثلاً: بـارون دو هولبـاخ، جودى بينوانوا، ٤. العلاقة شديدة الارتباط بأحد الأبوين؛ كما حصل لجماعة منـهم: جون ستيوارت مِل، سيمون دى بوفوار، ٥. اختلال تصرفات رجال الكنيسـة؛ كمـا عاناه مثلاً: جين ميسليه، إدوارد جيبون، ٦. الإجهاض؛ حيث يُلجأ اليه عنـد زيـادة عدد أفراد الأسرة، لكنه يترك آثاراً نفسية سيئة على بعض الأشخاص، ثمّ تهتز نظـرة الجميع للإله، ويُلحدوا كردة فعلٍ على حدوث ما حصل من هذه العوامل أو نحوهـا، وليس لأنّهم معتقدين عن فلسفة فكرية بعدم وجود الإله، وعلى هذا كانوا وما زالوا، ينظر: الإلحاد مشكلة نفسية، د. عمرو شريف ١١٩ وما بعدها – بتوضيح –.

سبقه غيره اليه من تدوير الأفكار القديمة، والتثقيفِ عليها كحقيقة مطلقة، إلّا أنّها ليست كذلك عند موازنتها ببراهين وجود الخالق.

وممّا يلفت النظر إعادةُ إنتاجِ تلك الأفكار على ما كانت عليه قبل مئات السنين، فهل سبب ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آَيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾[1]؟، بحيث يتسبّب التكبّر والاستعلاء في حصول الجدال، وإنكار آيات الله الدالة على خالقيته للموجودات وقدرته على إعادة الحياة لِمَنْ فقدَها، حتى التجأ بعضٌ الى الإنكار بأسلوب: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[2]، كما اتخذ غيره طابعَ التحدي بأسلوب: ﴿ائْتُوا بِآَبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[3].

وكلاهما مهما افترقت أساليب عرضهم لأفكارهم، لكنّهم اتفقوا –في طول هذه المدّة– على إهمالهم للنظر في هذه الأسئلة والأجوبة المعلنة: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ

---

(١) سورة غافر، الآية ٥٦.

(٢) سورة الجاثية، من الآية ٢٤.

(٣) سورة الجاثية، من الآية ٢٥.

لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[(١)].

ومن ثَمّ كانت النتيجة اكتفاءهم بالظنون التي لا معنى للتعويل عليها في هذا الشأن المهم جداً في حياة الإنسان؛ حيث يُلزمهم العقل بدفع الضرّر المتوجّه -وإنْ كان بدرجة الاحتمال-.

وهو ما يستشعره العاقل المتدبّر؛ إذ يجد في نفسه أنَّ ما يُذكر عن وجود المعاد والثواب أو العقاب، لا يخلو إمّا سيحصل بعد الحساب يوم القيامة، وعليه لا بدّ من دفع ضرّر العقاب، أو أنَّه لا يحصل، لكن كيف للإنسان الحيّ في هذه الدنيا أنْ ينفي حصول ما يوعد به بعد انتقاله عنها الى الآخرة؟!، ومعه فلا خيار سوى اتباع حكم العقل بلزوم دفع الضرّر حتى لو كان حصوله محتملاً؛ لينجو العاقل من ضرّر مرتقب بسبب إهماله للبراهين الكاشفة عن وجود الخالق، المعزّزة عقلياً وفطرياً بما تقدّمه الظواهر الكونية من استدلال منطقي على الإثبات، في مقابل ترديد دعوى الإنكار.

وهو ما يصيّر هذه الدعوى شبهة فكرية إزاء أجوبتها العلمية المدّعمة بالبراهين، فتحتاج من المنصفين الاطلاع عليهما بتجرّد،

---

(١) سورة يونس، الآيات ٣٤ - ٣٦.

ليؤمنوا بأنَّ الله تعالى هو الخالق دون سواه.

ويأتي اتباع أسلوب تقديم الأسئلة مع أجوبتها القرآنية، في سياق ترسيخ مبادئ الحوار العلمي المتقوّم بالدليل، والمنفتح على الآخر، بما يعينه على أنْ يعطي لنفسه فرصة التفكير قبل القبول أو الرفض، وإنَّما بعد سؤال المختص، ومحاكمة رأيه بمقاييس علميّة دقيقة؛ لأنَّ العالَم -اليوم- يعيش في ظل نظام التخصّص، المعتمَد عالمياً عند اختبار الأطروحات الجديدة، حيث لا يُكتفى بمعلومات عامّة، بل لا بدّ من مراجعة المختص.

وعلى هذا كانت الدعوة على ضرورة تحكيم المقاييس العلميّة؛ لكونها براهين على نزاهة الحكم، واحترام وقت الإنسان وجهده بما لا يمنع عمليّة الاستنزاف والهدر، ويضمن استحضار الإنسان للمعايير العلمية التي يؤدي غيابها الى حدوث فراغ معرفي، وتشنج نفسي، وعندها فيكتفي كلُ طرفٍ بوصف الآخر بما لا يُحبّه، وتُشحن الأجواء بمراشقات كلامية تُفضي بالحوار الى خصومة نفسية، فتغادرُهُ عواملُ نجاحِهِ.

بل قد يظن بعضٌ عدمَ إمكان معالجة الإلحاد أو نحوه من مظاهر التشكيك بالبراهين، وأنَّها تستعصي على الأجوبة والحلول، فيتوهم صواب الإشكالية فقط دون الحلول.

وهو تعجّل في الحكـم؛ إذ يتضـح مـن خـلال تراجـع عـدد مـن المشكّكين -كما تقدم بيانه- وجود حالة صحيّة من البحث واستقصـاء الأدلة بأُطروحاتهـا المختلفـة، وصـولاً الى الحقيقـة، في محاولـة جـادّة لتحقيق فهمٍ معتدلٍ، يستند الى البراهين دون القناعات المسبقة والعناد.

ولذا ليس كلّ مشكِّك بمعاند دائماً، ولا أنَّ كلَّ مؤمن دائمـاً هـو كما وصفَهُ دوكينز: (من المؤكد بأنَّ المؤمن الجاد عنده مناعـة هائلـة ضد الحجج والنقاش العقـلاني، ومـن أشـد أجهـزة المناعـة نجاحـاً تحذيرات خطرة لتجنّب حتى فـتح كتـاب مثـل هـذا، والـذي هـو بالتأكيد من عمل الشيطان، لكنّني مؤمن بأنَّ هناك العديد من العقول النيرة هنا وهناك، يكفيها القليل من التشجيع كـي تتحـرر مـن كـل رجال الدين وتعاليمهم)[١].

نعم، قد يُبرَّر هذا الاندفاع من دوكينز بتـأثير معاناتـه القديمـة[٢] على مجمل أفكاره وقناعاته، حتى انعكس -سلباً- على أدائه.

إلّا أنَّ تنوّع أسباب التشكيك بين تأثّرٍ نفسي، أو فشلٍ سياسـي، أو

(١) ينظر: وهم الإله، ريتشارد دوكينز، ترجمة بسام البغدادي ٩ - ١٠.

(٢) قبل ستين سنة من ابتعادٍ في صباه عن أسرته، وإجبارٍ على حضور برنامج كَنَسي ضد رغبته، وإيذاء؛ كما جاء في حواره مع مجلـة التـايمز في ٧ / ٩ / ٢٠١٣م ينظـر: الإلحاد مشكلة نفسية، د. عمرو شريف ١٧٦، وهم الإله، ريتشارد دوكينز ١٧٥.

إحباطٍ مجتمعي، لا تعيق رحلة البحث عن الحقيقة، التي لا خيار للعاقل سواها؛ لئلا يندم لاحقاً، أو يستمر مكابراً ومتهماً لغيره، فتطول المعاناة، و(الإنصاف راحة) كما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام[١].

٥. تأثّره بقراءاتٍ معيَّنةٍ للدين، فيتابع أحداً في طريقة فهمه للدين؛ ثقةً به من دون البحث عن فهم شخص آخر؛ لأنَّه منشدٌ الى الأول، ومتوترٌ نفسياً من غيره، أو لأنَّه يتعصب لرأي أحدٍ معيّن، حتى يحاول أنْ يصحح له جميع آرائه ولا ينقدها وفقاً للمقاييس العلميّة، وهو ما يؤدي الى عدم اطلاعه على آراء مثل:

أ- عالِم الفيزياء والرياضيات نيوتن(١٦٤٢ - ١٧٢٧م): (لا تشكّوا في الخالق؛ فإنه مما لا يُعقل أنْ تكون الضرورةُ وحدها، هي قائدةُ الوجودِ؛ لأنَّ ضرورةً عمياء متجانسة في كل مكان، وفي كل زمان، لا يُتصوّر أنْ يصدر منها هذا التنوّع في الكائنات، ولا هذا الوجود كلّه بما فيه من ترتيب أجزائه وتناسبها، مع تغيّرات الأزمنة والأمكنة، بل أنَّ كل هذا لا يُعقل أنْ يصدر الا من كائنٍ أولي، له حكمة وإرادة)[٢].

---

(١) عيون المواعظ والحِكَم، علي بن محمد الليثي الواسطي ٣٥.

(٢) ينظر: دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي ١ / ٤٩٦.

ب- الدكتور مصطفى محمود(١٩٢١ - ٢٠٠٩م): (الكـون كلّـه مبني وفق هندسة وقوانين دقيقة، وكل شيءٍ يتحـرك بحسـاب مـن الذرّة المتناهية في الصغر، الى الشمس وكواكبها، الى المجرّة الهائلة، الى السماء المترامية، هناك وحدة بينها، تعني جميعها أنَّ خالقها واحـد لم يشرك معه شريكاً يسمح بأسلوب غير أسـلوبه، الكـون إذن لـيس أزلياً، وإنما كان له بدء؛ بدليل "القانون الثاني للـديناميكا الحراريـة": إنَّ الحرارة تنتقل من الساخن الى البارد، مـن الحـرارة الأعلـى الى الحرارة الأدنى حتى يتعادل المستويان فيتوقف التبادل الحراري، ولـو كان الكون أبدياً أزلياً بدون ابتداء، لكان التبادل الحراري قد توقـف في تلك الآباد الطويلة المتاحة، ومن ثمَّ لتوقفـت كـل صـور الحيـاة، ولبردت النجوم وصارت بدرجة حرارة الصقيع، وانتهى كـل شـيء، إنَّ هذا القانون هو ذاته دليلٌ على أنَّ الكون كان له بدء)[١].

وغيرهمـا[٢] ممَـنْ أدلـوا بشـهادات مدعّمـة بـالبراهين العلميّـة

---

(١) رحلتي من الشك الى الإيمان، د. مصطفى محمود ١١، ١٥، ١٦، دار المعارف بمصر ١٩٧٠م.

(٢) ينظر: دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجـدي ١ / ٤٨٢ - ٥٥٨؛ فقـد عَرَضَ لبعض (أقوال وبراهين أكبر علماء الأرض، وأنهم مجمعون على وجود خـالقٍ حكيمٍ، خلَقَ الكونَ على أقوم نظام، وأبدع إحكـام)، كمـا ذكَـرَ شـبهات الملحـدين والردود عليها، ينظر: ص ٥٠٤. يشار الى أنَّ طـبع أول هذه الموسوعة كـان في عـام

والتجارب العمليّة، ليكشفوا عن دلالات البرهان الكوني على التوحيد، وأنَّ الإنسان إذا استعان بمعطيات العقل والفطرة، فسيعرف أنَّ الله هو الخالق.

وعندها يستند في موقفه من الدين على أساسٍ علميّ سليمٍ، متجنباً ردود الأفعال ومخرجاتها؛ لمعرفته بعدم قدرتها على توضيح سبّب إيمانه بالله أو عدمه، بل سيبقى غامضاً عليه فضلاً عن غيره؛ ولهذا كثيراً ما تتغير اتجاهات بوصلته، فمرّة يؤمن وأخرى يُلحد وثالثة يُشكّك، وغير ذلك ممّا يدل على تشتّت رؤية الإنسان، وشروده الذهني، فيبتعد عن المسار الصحيح المدعوم عقلياً وفطرياً.

ولذلك كان من اهتمامات منظومة الدين في برنامجها لتأهيل

١٩١٠م، وأُكملت ١٩١٨م، وهو ما يؤرخ لسبق جهود العلماء للردّ على هذه الشبهات، ومن ثَمَّ فلم تنقطع بل ما زالت محاولات التصحيح متواصلة، لكن مشكلة البعض في عدم اطلاعه، أو قلة اهتمامه بمتابعة الردود التي صدرت قبل ما يزيد على قرن –كما في دائرة المعارف، أو الردود المعاصرة.

وليس من جديد في هذه الشبهات سوى إعادة إنتاجها، مع استمرار التغافل عن قراءة أجوبتها، أو عدم التأمل الواعي بها، ولذا فيجب تكثيف برامج التوعية وإدامتها، والصبر على ذلك، مع التدرّج في مراحل البيان، والإفادة من التجارب السابقة، حتى غير الناجحة منها؛ وذلك من أجل تطوير أساليب الاستدلال والعرض بما يناسب عوامل الزمكان والمتلقي.

الفرد، ضمن حقل التنمية المستدامة، هو توسيع خيارات الإنسان في تنمية نفسه لنفسه بنفسه وصولاً للأفضل، وتحقيق ذاته وأمنياته ضمن المعقول، وإلّا لتعارضت مع ثوابت العقلاء، فلا بدّ للإنسان عند سيره نحو الحقيقة، من أنْ يتجرّد عن مسبّقات الأحكام، ليقترب من الحقيقة المدعومة بالبرهان، ويلتحق بالمؤمنين بوجود الله، الذين تفوق أعدادُهم أعدادَ المشككين.

وإنَّ من ثمار هذا التجرّد هو تأكيد سلامة المنهجِ العلمي في مقابل غيره، وتأصيل الإيمانِ بالخالقِ في النفوس؛ لتستقرّ على قِيمٍ منظومة الأخلاق، وإلّا فكيف قد استقطب الدينُ مختلفَ الشرائح، ولم تنحصر فئات المؤمنين بشريحة دون غيرها؟، وهو ما يشهد بعدم تعارض الدين مع العلم.

بل إنَّ للعلم دوراً مهماً في بلورة براهين التوحيد، واستعراض أدلته المتنوّعة بما لبّى حاجات مختلف المستويات الذهنية للباحثين عن الحقيقة، وأتاح للجميع فهمها بل إثبات وجود الله من خلال مختلف التخصصات البشريّة.

وذلك لأنَّ من خصائص الدين هو اقتداره على التأصيل الفكري لوجود الله، بما يصيّره حقيقة في مختلف محطات المكان والزمان، وأنَّ

ذلك ليست نزعة نفسيّة اقتحمت حياة هذا أو ذاك، بسبب تأثره بفعلٍ أو ردّة فعل.

ولذا لم يهدف الدين الى مجرد توسيع خيارات الإنسان، بل سعى الى تعميق مدارك الإنسان، وترشيد اختياراته، ليختار ما يريد بإرادة واعية كاملة.

كما لم يكتفِ الدين من دور التنمية بكونها «عملية ترمي الى توسيع نطاق خيارات الأفراد وحرياتهم»، وإنما جعلها عملية تطوير الكفاءات البشرية وتحسين أدائها بصورة شاملة، في مختلف الميادين الحياتية، ممّا يشارك كمدخل لحصول عمليات تغيير نوعي في المجتمع، مع المحافظة على أصوله، والمساهمة في الانسجام بين الأفراد، بما لا يتعارض وثوابت الإنسان النوعيّة[١]؛ إذ لا بدّ للفرد من مراقبة أفكاره وأفعاله، وتقييمها بموازين عادلة، ومعايير مستقيمة؛ ليُحصّن ذاته من الاختراق، ولا يصيّرها أداةً لمشروع آخر.

وإلّا لكانت حريّة الشخص تضييقاً لحريّات غيره، وهو عكس المطلوب من التنميّة البشريّة؛ ولذلك قد رفض العقلاء ممارسةَ العنفِ،

---

(١) للمزيد حول تعريف التنمية البشرية ومناقشته، ينظر: الإمام الصادق عليه السلام والتنظير للتنمية البشرية، محمد صادق السيد محمد رضا الخرسان ٢٥ – ٢٦.

أو استعمالَ الموادِ الفتّاكةِ أو أسلحةِ الدمارِ الشاملِ، أو غيرها ممّا يضرّ بمقياس القيم والأخلاق، ولم يوافقوا عليها لأنّها ذات منافع معيّنة، بل حيث كانت منافعها ضئيلة جداً، فقد أدان العقلاء استعمالها.

وعلى هذه القاعدة يلزم عرض جميع أفكار التشكيك على ثوابت الأدلة العلميّة، من أجل تمحيصها وغربلتها؛ لئلا يتوهم أحدٌ قدرة الأفكار على إلغاء البراهين على وجود الله خالقاً للكون؛ لأنّه بهذه المعياريّة ستُحفظ حقوق الأطراف، وتتضح معالم الدين كمنهج فكريّ عن غيره من عادات المجتمع أو تصرفات الأفراد؛ إذ يجب التفريق بين النظرية والتطبيق؛ لكيلا تُصطنع حواجز مع الدين والإله، بسبب صدمة من هذا، أو انزعاج من ذاك؛ لأنّها ذات تأثير كبير في المشكّكين ممّن لا يستند الى رؤيّة فلسفيّة في تشكيكه، حيث يبرّر فعله بأنّه شخصياً مستاءٌ من أحد المتطرّفين، أو متأثرٌ بآخر، ثم يحاول إخراج ذلك الاستياء والتأثّر، بصورة أنّه إنسان ذو حرية كاملة في إعادة قراءة الدين.

وليته قضى وقتاً كافياً بالبحث الجادّ عن الحقيقة، ليختصر الطريق على نفسه، ولا تضيع سنوات عمره، كما ضاعت من غيره.

وإنَّ من بين آليات البحث الجادّ، هو أنْ يتأمل الإنسان في مشهد الإبداع الكوني، ويستنطقه عمّنْ خلَقَهُ من العدم، حتى يرشده الى

وجود الخالق لهذا الكون، وهو الله تعالى؛ لأنَّه (إله واحد أحد، واجب الوجود، غير ماديّ، لا يطرأ عليه التغيّر، مطلق القدرة، مطلق العلم، كامل الخير)[(١)]، وإلّا فليس معقولاً وجود الكون بما فيه من عجائب الخلق وأنظمة دقيقة بنفسه صدفة من دون خالق.

كيف، وجميع هذه الفعاليات الكونيّة –وهي متنوّعة الأداء والعطاء– دالّة على وجود (مصدر غير ماديّ، مطلق العلم والذكاء والقدرة والخالقيّة، ولا تتوافر تلك الصفات إلّا في الإله الخالق، الذي هو المصدر المعلوماتي الأعلى)[(٢)]، وهو الذي خلق الكواكب، والأرض بما فيها من المعدن والنبات والحيوان بأنواعها، وأتاحها جميعاً لاستفادة الإنسان، المكوّن من خلايا وأعضاء، والـمُكرّم بالعقل، وهو أداة التعلّم والاستنتاج، والذي به اقتدر على توظيف قدراته ومعلوماته، حتى (أنَّه قرأ المعلومات المدوّنة في الشفرة الوراثية لإحدى الخلايا البكتيريّة، فتمكن من تجميع الشفرة الوراثيّة "كروموسوم" لخلية بكتيريّة)[(٣)].

---

(١) المعلوماتيّة برهان الربوبيّة الأكبر، د. عمرو شريف ٤٥٤، نيو بوك للنشر – القاهرة ٢٠١٨م.

(٢) ينظر: المعلوماتيّة برهان الربوبيّة الأكبر، د. عمرو شريف ٤٨٤.

(٣) ينظر: المعلوماتيّة برهان الربوبيّة الأكبر، د. عمرو شريف ٤٨١.

وهو ما أبهر العقول، وقادها الى الإيمان بوجــود الخــالق للكــون، الذي دلّت دقة كائناته على وحدة خالقه، وأنّه الله لا شريك له؛ كما تشهد به المظاهر الكونية المختلفة، وانضباط إيقاعـات الحيـاة كلّهـا بشكلٍ دقيقٍ جداً، يمتنـع صـدوره مـن غـير الواحـد الأحـد، وإلّـا لاختلف النسج، وتبايَنَ الصنع.

لكنه صنعٌ مُحْكَمٌ مُتْقَنٌ، فكان من أعظم البراهين علــى صــدوره من مصدر فائق الذكاء، وليس هـو إلّـا الله (الـذي وضـع بحكمتـه القوانين الطبيعيّة وضوابطها، بحيث تسمح بنشأة منظومـات المجـرّات والنجوم والكواكب وعناصر المادة، والحياة نفسها، بل والإنسان)[1].

(١) المعلوماتيّة برهان الربوبيّة الأكبر، د. عمرو شريف ٣٤٥.



مستـــويـاتُ

البراهين والأدلةِ على التوحيدِ

مستوياتُ البراهين والأدلةِ على التوحيدِ

إنَّ البرهنة والاستدلال على توحيد الخالق تعالى، يتم عِبر مستويات عدّة، تؤدي -جميعاً- بمَنْ يتأملها الى الإيمان بوجود الله سبحانه:



المستوى الأول:

برهان النظم

المستوى الأول: برهان النظم

كما يُصطلح عليه في علم الكلام؛ وهو: إنَّ الكون وما فيه من مختلف المخلوقات بنظمها وتناسقها مضموناً وشكلاً، يوجب للذي يتأمله اطمئناناً تاماً بوجود صانعٍ قد أراد ذلك، فأوجده بقدرته، وأنَّ ذلك كلّه لم يوجد صدفةً؛ إذ أنَّ انتظامه الدقيق، واتساقه ضمن الإرادة الإلهية، دليلٌ واضحٌ على قدرة الفاعل وعلمه وحياته؛ إذ اتقان الصنعة، وبديع الخلقة، يدلان على وجود صانع خالق، وإلّا فلماذا لم يُخترَق هذا النظام ولم يتغيّر طولَ الزمان؟، وكيف نجَحَ في مختلف المكان من أنحاء العالَم؟.

فاتساق النظام واستقامة التصميم، برهانٌ على وجود المصمّم القادر الغنيّ عن غيره؛ قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

١. **(ولَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ وجَسِيمِ النِّعْمَةِ، لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ وخَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ، ولَكِنِ الْقُلُوبُ عَلِيلَةٌ والْبَصَائِرُ مَدْخُولَةٌ)**[1].

---

(١) نهج البلاغة، الشريف الرضي ٢٧٠، رقم ١٨٥. الْبَصَائِرُ مَدْخُولَةٌ: معيبة، ينظر: لسان العرب، ابن منظور ١١ / ٢٤١.

فهي دعوة الى عدم التسرّع بالنفي، وأنَّه لا بدّ للإنسان من التفكّر في دلالة ما يشاهده من مخلوقات عظيمة، على وجود خالق خلقها للانتفاع منها، وهو ما يدلّ على محبته لهم؛ إذ أنعم بهذه النِعم الكثيرة عليهم؛ ليعينهم على مواصلة الحياة، وتجاوز مصاعبها.

لكن مشكلة بعض الناس أنَّهم يملكون أجهزة التفكير، إلّا أنَّهم لا يستعملونها بما يخلّصهم من عذاب النار؛ وذلك إذا فكروا في دقة خلق هذا النظام الكوني الدقيق، وأيقنوا باستحالة حصوله صدفة، بل قد أوجده خالق عظيم مقتدر على خلق صغير الأشياء وكبيرها، ثمّ فكروا في إمكان قدرة أحد غير الله على ايجاد هذا الانتظام والتناسق البديع، وعرفوا أنَّ جميع المبدعين والمخترعين في مختلف الزمان والمكان، لم يتمكنوا إلّا من ايجاد بعض الموجودات الكونية، بدليل أنَّه يوجد في هذا الكون ما لم تُسجّل لأحدٍ براءة اختراعه، لكنه موجود ينتفع منه الجميع قبل الاختراع وبعده، فكيف وُجِدَ؟، ومَنْ أوجده؟.

وما زال العالَم يصحو على اكتشافات علميّة مذهلة، فمَنْ الذي أوجدها بموادّها الخام وخصائصها؟، لأنَّ دور المكتشف يقتصر على إظهار الموجود المخفي على غيره، فهو لم يوجده من العدم، وإنَّما أبدع في عمليّة اكتشافه وتقديمه للناس، فمَنْ الذي أوجده من العدم، وصيّره في موادّ الطبيعة الغنيّة بكثير ممّا ينفع البشريّة؟.

وعندها يُدرك المتفكرون بأنَّه ليس من صنع البشر أو الطبيعة؛ لوضوح عجزهما، بل هما مخلوقان، فآمنوا بأنَّ خالق الجميع هو الله.

ثم يُكمل الإمام أمير المؤمنينعليه السلام استدلاله العلمي على التوحيد ببرهان النظم، فيقول:

٢. (أَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرِ مَا خَلَقَ كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَه، وأَتْقَنَ تَرْكِيبَه، وفَلَقَ لَه السَّمْعَ والْبَصَرَ، وسَوَّى لَه الْعَظْمَ والْبَشَرَ)[١].

مبيّناً ضرورة عدم إهمال ما يراه الإنسان حتى لو كان صغير الحجم.

٣. (انْظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا ولَطَافَةِ هَيْئَتِهَا[٢]، لَا تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ الْبَصَرِ ولَا بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكَرِ، كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا، وصُبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا)[٣].

---

(١) نهج البلاغة، الشريف الرضي ٢٧٠، رقم ١٨٥.

(٢) لَطَافَةُ هَيْئَتِهَا: أي دقة كيفيتها وشكلها؛ والمراد من هذه الجملة وسابقتها، بيانُ أنَّ صغرَ حجمِ النملةِ، ودقةَ أجزاءِ شكلِها الخارجي، دليلُ وجودِ خالقٍ لها، وأنها لم توجد صدفةً؛ لأنَّ النملة ولو كانت صغيرة، لكنها مزوّدة بنظامٍ متكاملٍ من أعضاء دقيقة جداً، وطاقة عظيمة تُنجز بهما عدة فعاليات مهمة، بما يدل على وجود خالقٍ لها، وهو الله سبحانه؛ إذ لو كان غيره، لأعلن عن نفسه، ولم يحصل ذلك؛ مع هذا التطوّر الهائل، لكن عجز الجميع عن نفخ الروح في ما قدّموا من اختراعات مهمة؛ ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً﴾ سورة الكهف، من الآية ٣٨.

(٣) دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا، أي: مشت ببطء. صُبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا، أي: انحدرت وتوجهت الى محل رزقها.

تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى جُحْرِهَا، وتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا، تَجْمَعُ فِـي حَرِّهَـا لِبَرْدِهَا، وفِي وِرْدِهَا لِصَدَرِهَا[١].

مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا، مَرْزُوقَةٌ بِوِفْقِهَا، لَا يُغْفِلُهَا الْمَنَّـانُ، ولَـا يَحْرِمُهَـا الدَّيَّانُ، ولَوْ فِي الصَّفَا الْيَابِسِ والْحَجَرِ الْجَامِسِ[٢].

ولَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَكْلِهَـا، فِـي عُلْوِهَـا وسُـفْلِهَا، ومَـا فِـي الْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِيفِ بَطْنِهَا[٣]، ومَا فِي الرَّأْسِ مِـنْ عَيْنِهَـا وأُذُنِهَـا، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَباً، ولَقِيتَ مِـنْ وَصْـفِهَا تَعَبـاً، فَتَعَـالَى الَّـذِي أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا، وبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا، لَمْ يَشْـرَكْه فِـي فِطْرَتِهَـا فَاطِرٌ، ولَمْ يُعِنْه عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ.

٤. ولَوْ ضَرَبْتَ فِي مَـذَاهِبِ فِكْـرِكَ لِتَبْلُـغَ غَايَاتِـه، مَـا دَلَّتْـكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ، هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَةِ؛ لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُـلِّ

---

(١) تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى جُحْرِهَا، أي: تنقلها الى المواضع التي تحفرها هي بنفسـها؛ حـتى تحتمي بها، وتخزن فيها طعامها. فِي وِرْدِهَا لِصَدَرِهَا، أي: تجمع ما تجده أثنـاء مجيئهـا لتنتفع منه عند رجوعها الى مأواها.

(٢) الصَّفَا: العريض من الحجارة الأملس، الْجَامِسِ: الجامد، ينظر: لسان العرب، ابـن منظور١٤ / ٤٦٤، ٦ / ٤٢.

(٣) الشَّراسيفُ: أَطْرافُ أَضْلاعِ الصدْرِ التي تُشْرِفُ على البطن، ينظر: لسـان العـرب، ابن منظور٩ / ١٧٥.

شَيْءٍ، وغَامِضِ اخْتِلَافِ كُلِّ حَيٍّ، ومَا الْجَلِيلُ واللَّطِيفُ، والثَّقِيلُ والْخَفِيفُ، والْقَوِيُّ والضَّعِيفُ فِي خَلْقِهِ إِلَّا سَوَاءٌ)[1].

وبهذا يكون الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قد اختار مثالاً حيّاً يشاهده مختلف الناس، بأحجامه وأشكاله المتعدّدة، بما يجعله قريباً منهم؛ لأنَّه محسوس لهم بالرؤية المباشرة.

لكنَّه عليه السلام لم يكتفِ بمثال من عالَم الحيوان، بل دعا الناس الى التفكّر في عوالم الفلك والنبات والماء والجماد، بما تقدّمه من دلالات توحيدية، وما تبرز من برهان النظم؛ فقال:

٥. **(وكَذَلِكَ السَّمَاءُ والْهَوَاءُ والرِّيَاحُ والْمَاءُ؛ فَانْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ والْقَمَرِ، والنَّبَاتِ والشَّجَرِ، والْمَاءِ والْحَجَرِ، واخْتِلَافِ هَذَا اللَّيْلِ والنَّهَارِ، وتَفَجُّرِ هَذِهِ الْبِحَارِ، وكَثْرَةِ هَذِهِ الْجِبَالِ، وطُولِ هَذِهِ الْقِلَالِ[2]، وتَفَرُّقِ هَذِهِ اللُّغَاتِ، والأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ.**

٦. **فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ الْمُقَدِّرَ وجَحَدَ الْمُدَبِّرَ؛ زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، ولَا لِاخْتِلَافِ صُوَرِهِمْ صَانِعٌ، ولَمْ يَلْجَئُوا إِلَى**

---

(١) نهج البلاغة، الشريف الرضي ٢٧٠ – ٢٧١.

(٢) الْقِلَال، جمع القُلَّة، وهي القطعة تستدير في أعلى الجبل، وتسمى بالقُنَّة أيضاً، ينظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ١ / ١١٨– ١١٩.

حُجَّةٍ فِيمَا ادَّعَوْا، ولَا تَحْقِيقٍ لِمَا أَوْعَوْا، وهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ، أَوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ؟!)[١].

مشيراً الى استحالة وجود جميع هذه الأصناف بنفسها، وإنَّما لا بدّ من موجدٍ لها، فمَنْ هو؟ إنْ كان هو الله؛ لأنَّه الذي ثبتت قدرته المطلقة على خلق الأشياء، فهو جواب مدعّم بالدليل، وإنْ كان غير الله فيُسأل عن مدى قدرته؟، وهل يمكنه خلقُ الأشياء من حجم ذرّةٍ[٢] الى عالَم الذرّة[٣]؟!.

نعم، قد اهتدى الإنسان –وهو خلق الله– الى اكتشاف الطاقة

---

(١) نهج البلاغة، الشريف الرضي ٢٧١.

(٢) الذرّة: أصغر جزء لا ينقسم.

(٣) (تعدّ الذرة أصغر جزء في العنصر الذي يحمل خصائصه. وهي تتشكل من الكترونات وبروتونات ونيوترونات، وتُحدِّد هذه المكوّنات وتوزيعها خصائصَ كل عنصر، وترتبط النيترونات بالبروتونات بقوة تسمى طاقة الربط (Binding Energy). توجد البروتونات والنيترونات، التي تُعزى إليها معظمُ كتلة الذرة، في نواة صغيرة الحجم محاطة بالإلكترونات مساوية في عددها عدد البروتونات في النواة، ومن ثمَّ تكون الذرة متعادلة الشحنة. وتشغل الالكترونات ذات الوزن القليل جداً حيزاً كبيراً جداً يساوي ما يقرب من بليون حجم للنواة. ويبعث تركيب الذرة على الدهشة؛ إذ تتشكل من نواة وزنها عال جداً، وحجمها صغير جداً. وهي محاطة بالإلكترونات وزنها خفيف، ولكنها تشغل حجماً كبيراً جداً)، ينظر: العلوم الطبيعيّة، مجموعة مؤلفين، ١٥، دار المسيرة.

الذريّة، وعرف تحويل المادة الى طاقة، لكنه توصّل لذلك باستعماله لعقل وغيره قد خلقه الله له، وليت هذا الإنسان اكتفى بتوظيف ذلك إيجابياً لنفع البشرية.

وعليه فخالق الإنسان الذي بلغت اكتشافاته ما بلغت هو الله، وليس سواه.

وقد شاء الخالق العظيم أنْ يودع في جميع ما خلق أدلةً على توحيده؛ ليدلّ العباد -بمختلف أمكنتهم وأزمنتهم- على وجوده، ويعرّفهم بصفاته، فيشكروه -كما ألزمهم العقل بذلك- لكونه المنعم؛ حتى لا يكونوا جاحدين للنِعم، ولا منكرين لأدلة القدرة، والتي منها الانتظام العجيب والاتساق بين صفات المخلوق ووظائفه الحياتية، بما يدلَّ على قدرة الخالق وإرادته لما خلَق، كما يكشف عن عجز غيره ومحدوديّة فاعليته مهما بلغ ذكاؤه وأعوانه.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وهو يُذكِّر بمشهدٍ يتكرّر في المدن والصحارى، وينظره العاملون في مجالات الزراعة والبيطرة والفسلجة وغيرُهم:

٧. (وإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي الْجَرَادَةِ؛ إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ، وأَسْرَجَ لَهَا حَدَقَتَيْنِ قَمْرَاوَيْنِ، وجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْخَفِيَّ، وفَتَحَ لَهَا

الْفَمَ السَّوِيَّ، وجَعَلَ لَهَا الْحِسَّ الْقَوِيَّ، ونَابَيْنِ بِهِمَا تَقْرِضُ، ومِنْجَلَيْنِ بِهِمَا تَقْبِضُ.

يَرْهَبُهَا الزُّرَّاعُ فِي زَرْعِهِمْ، ولَا يَسْتَطِيعُونَ ذَبَّهَا ولَوْ أَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ، حَتَّى تَرِدَ الْحَرْثَ فِي نَزَوَاتِهَا، وتَقْضِيَ مِنْه شَهَوَاتِهَا، وخَلْقُهَا كُلُّه لَا يُكَوِّنُ إِصْبَعاً مُسْتَدِقَّةً)[1].

وهذا ما يوجب على العاقل أنْ يتفكّر في عظمة الخالق الذي خلَقَ عالَمَ الحيوان بأنواعه وخصائصه العجيبة، والجرادة من بعضه، بل الأعجب من ذلك وهو ما يدلّ على القدرة أيضاً:

٨. (فَالطَّيْرُ مُسَخَّرَةٌ لأَمْرِه، أَحْصَى عَدَدَ الرِّيشِ مِنْهَا والنَّفَسِ، وأَرْسَى قَوَائِمَهَا عَلَى النَّدَى والْيَبَسِ، وقَدَّرَ أَقْوَاتَهَا، وأَحْصَى أَجْنَاسَهَا، فَهَذَا غُرَابٌ وهَذَا عُقَابٌ، وهَذَا حَمَامٌ وهَذَا نَعَامٌ، دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِاسْمِه وكَفَلَ لَه بِرِزْقِه)[2].

كما يمكن للإنسان العاقل أنْ يختار مجالاً آخر لتفكّره في عجائب المخلوقات، فيتأمل في آلية تكوّن الماء، وهو أحد أهم مصادر ديمومة النشاط البشري وغيره:

---

(١) نهج البلاغة، الشريف الرضي ٢٧١ - ٢٧٢. قَمْرَاوَيْنِ مثنى قمراء، وهي البيضاء، والمضيئة، وكلاهما كناية عن لمعان الحدقة.

(٢) نهج البلاغة ٢٧٢.

٩. (وأَنْشَأَ السَّحَابَ الثِّقَالَ فَأَهْطَلَ دِيَمَهَا، وعَدَّدَ قِسَمَهَا فَبَلَّ الأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا، وأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا)[١].

وهو ما يدعو الى التأمل بهذا المصدر الحيويّ، وهو بعض ما خلقه الله تعالى، ليعرف العاقل بأنَّ نظام الكون وما له من سجل تراكميّ في مراحل التشكّل والتطوّر، لم يوجد تلقائياً بنفسه، ولا وَضَعَتْ خرائطَهُ صدفةٌ، ولا اجتمعت لِبرمجته مجموعة من التخصّصات، بل كان من تصميم مصمّمٍ واحدٍ، عالِمٍ بأسراره، قادرٍ لوحده على إدارته بتمامه.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٢].

كما يعرف العاقل بأنَّ ظواهر الطبيعة حتى الجماد فيها، ومظاهر

---

(١) المصدر نفسه. السحاب، جمع السَّحَابَة، وهي: الغَيْم والتي يَكُونُ عَنْهَا المَطَر؛ سُمِّيَت بِذَلِكَ لانْسحَابِهَا في الهَوَاءِ أَو لِسَحْبِ بَعْضِهَا بعضاً، أَو لِسَحْبِ الرِّياح لَهَا. الدِيم: جمع الدِّيمَة، وهي: مَطَرٌ يَطُولُ زَمانُه في سُكُون. الجُدُوب، جمع الجدب، وهو: نقيض حالة الخصب وكثرة العشب، ينظر: تاج العروس، الزبيدي ٢ / ٦٨، ١٦ / ٢٥٣، ١ / ٣٥٥ – ٣٥٧.

(٢) سورة الحشر، الآيات٢٢ – ٢٤.

الحياة حتى ما لا يُرى منها، تدلان على دقة نظام الكون، وتشهدان في طول الزمان وعرض المكان بوجود الفاعل الحكيم الهادف الى خلق ذلك كلّه؛ وذلك لأنَّ اختلاف المخلوقات في الأحجام والصور والخصائص، يثير تساؤلات عدّة حول سبب تعدّدها، ولماذا لم تتحد كلّها؟، بل كان لكلٍّ منها ما يختلف به أو يتفق مع غيره!.

وهو ما يكشف عن وجود مَنْ أعدَّ لذلك كلّه، ولم يكن صدفة؛ لأنّها عاجزة عن إيجاد شيء، فضلاً عمّا لا تستوعبه الإحصائيات من مخلوقات قد انقرضت منها على امتداد تأريخ الزمان وجغرافية المكان أعداد كثيرة، وما زال غيرها يملأ قارّات الدنيا، وهذا كافٍ للدلالة على عجز الصدفة ونحوها.

بينما يعني الاستدلالُ على التوحيد ببرهان النظم، تتبعَ عيّنات تشترك في بديع خلقها، وتناسق صنعها، ثم الانتقال من وجود هذا المصنوع المتقن الى وجود صانعٍ مريدٍ له قادرٍ عليه؛ إذ لو لم يوجد الصانع، فكيف وُجد المصنوع؟، وهل للمعدوم فاعلية الإيجاد أصلاً؟، ولو أمكن ذلك لاجتمع الوجود والعدم في شيء واحد، وهما نقيضان يستحيل اجتماعهما.

وعليه فلا يعقل وجود المعدوم حال كونه معدوماً، أو انعدام الموجود حال كونه موجوداً، وذلك لاحتياج حدوث الممكنات الى

علّة وسبب المعدوم، وإلّا لبقيت معدومة، فـإذا وُجـد شـيءٌ اتضـح وجود علّة لوجوده؛ لاستحالة وجود المعلول من دون علّة، والمسبَّب من دون سبب، والصدفةُ فاقدة للإرادة أصلاً، فلا تصلح علّة وسـبّباً لوجود شيءٍ.

وإنَّ من خواص الاستدلال ببرهان النظم -أو حجة التصـميم-، أنَّه ميسورٌ فهمه لعموم شرائح المجتمع؛ حيث يمكن كلٌّ أحدٍ إذا رأى تصميماً معيّناً، أنْ ينتقل عند رؤيته له الى الحكم بوجود مصممٍ، ولو لم يره؛ وذلك لمعرفته باستحالة وجود الأثر من دون مؤثر، فهل يُعقل وجود الكون بنظامه الدقيق المحسوس منه وغير المحسوس صـدفة؟؛ وكيف يتصوّر عاقلٌ ذلك بعدما عُلِمَ استحالة حدوث الممكنات مـن دون مُحْدِثٍ يوجدها؟.

هل الصدفة قادرة؟!

وعليه فإذا استحال وجود تصـميم هندسـي أو غـيره مـن دون موجد، فكيف يوجد التصميم الكوني البديع من دون موجدٍ مُريدٍ له قادرٍ عليه؟، بل هو مستحيل إلّا إذا أوجده الله؛ لأنَّ الصدفة ونحوها غير قادرة على شيء؛ وفقاً للمعطيات الآتية:

المُعطى الأول:

ما عرَضَهُ الفيزيائي والعالِم النووي جيرالد شرويدر من (تجربة قام بها المجلس الوطني البريطاني للفنون؛ حيث تم وضع كمبيوتر في قفصٍ بداخله ستة قرود، وبعد شهر من العبث بالكمبيوتر، أنتجت القرود خمسين صفحة مكتوبة، لكن دون كلمة واحدة تامّة، بالرغم من أنَّ الكلمة باللغة الإنجليزية يمكن أنْ تتكوّن من حرفٍ واحدٍ فقط؛ فالحرف A يمكن أنْ يمثّل كلمة إذا كان هناك مسافة إما عن يمينه أو يساره، فإذا أخذنا بالاعتبار أنَّ هناك ثلاثين حرفاً ورقماً على لوحة المفاتيح، فإنَّ احتمال الحصول على كلمة مكوّنة من حرف واحد هو: (٣٠×٣٠×٣٠)، أي: (٢٧،٠٠٠)، وعندها يكون احتمال الحصول على كلمةٍ من حرفٍ واحدٍ هو(١:٢٧،٠٠٠))[١].

فهل يعتني عاقل بقيمة هكذا احتمال ضئيل؟!، وعليه فلا بدّ من وجود مصممٍ لهذا التصميم الكوني البديع، قد خلَقَهُ بهذا الشكل الدقيق.

---

(١) ينظر: هناك إله، أنتوني فلو، ترجمة: د. صلاح الفضلي ١٠٧، رحلة عقل، د. عمرو شريف ٧٥.

وقد حصل شرويدر على الدكتوراه في الفيزياء النووية والكون من أمريكا عام ١٩٦٥ م ولد في إسرائيل (...) المصدر نفسه.

المُعطى الثاني:

(إنَّ اكتشاف الحمض النووي (DNA)، أوضَحَ التعقيد الشديد غير القابل للتصديق للترتيبات اللازمة لخلق حياةٍ، وهو الأمر الذي يوجب أنْ يكون هناك ذكاءٌ خارقٌ يجعل هذه العناصر المختلفة تعمل معاً، إنه التعقيد الخارق لهذه العناصر والدقة الهائلة في الطرق التي تتفاعل فيما بينها. اجتماعُ التعقيد والدقة في الوقت المناسب بالصدفة أمرٌ مستحيلٌ، لا بدّ من أنْ الأمر يتعلق بتعقيدٍ هائلٍ أنتج ما وصلنا اليه)[١]؛ بما يدل على وجود المصمِّم.

إلّا أنَّ دوكينز اكتفى بالقول إنّه: (في مرحلةٍ من المراحل تكوّن جُزيء مميّز بالصدفة، لكنّه تحلّى بالمقدرة الاستثنائية على استحداث نُسخٍ منه)[٢]!!، فيكون بذلك مخالفاً لبرهان النظم -أو حجة التصميم- الذي وثّقته البراهين والأدلة العلمية والوجدانية الفطرية، من حقيقة وجود خالقٍ للكون؛ حيث يعتمد هذا المستوى من الاستدلال، على التتبع والاستقراء وحساب الاحتمالات الرياضي، في إظهار النتائج وعرضها؛ ليتيقن العاقل بأنَّ الطبيعة لا تصنع نظاماً للكون بديعاً دقيقاً، متناسقاً منتظِماً، بل لا بدّ من وجود فاعلٍ قد صمّم ما أراده

---

(١) ينظر: هناك إله، أنتوني فلو ١٠٦، رحلة عقل ٧٤.

(٢) الجينة الأنانيّة، ريتشارد دوكينز، ٢٨ – ٢٩.

من الكائنات على ذلك الشكل؛ وذلك لوضوح أنَّ اللا نظام لا ينتج هذا النظام الدقيق.

بل حتماً أوجده عالِمٌ بما صنَعَ، مريدٌ له، ولم يحدث هـذا الكـون عفوياً بلا إرادة؛ إذ (العلم سلّط الضوء علـى ثلاثـة أبعـاد للطبيعـة تشير الى الإله: ١. حقيقة أنَّ الطبيعة تخضـع لقـوانين. ٢. الحيـاة في الكائنات الذكية المُنظَّمة والمسوقة بغايات، والتي نتجت عـن المـادة. ٣. الوجود الفعلي للطبيعة)[(١)].

والا فكيف اتسق بهذا النسق المُعجب المُـدهش للعقـول، المُحيّـر للعقلاء؟!؛ قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[(٢)].

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: (الْحَمْدُ لِلَّه الدَّالِّ عَلَـى وُجُـودِهِ بِخَلْقِه، وبِمُحْدَثِ خَلْقِه عَلَى أَزَلِيَّتِه، وبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَا شَبَه لَـه؛ لِافْتِرَاقِ الصَّانِعِ والْمَصْنُوعِ، والْحَادِّ والْمَحْدُودِ، والرَّبِّ والْمَرْبُوبِ)[(٣)].

وهذا كلّه حثٌ على الإفادة من برهان النظم، ودعوة الى توظيف

---

(١) ينظر: هناك إله، أنتوني فلو ١٢١.

(٢) سورة فصلت، من الآية ٥٣.

(٣) نهج البلاغة ٢١٢، خطبة ١٥٢.

التأمل بدقة التصميم الكوني، في تحصيل اليقين بوجود الخالق؛ لأنَّه:

المُعطى الثالث:

(بحسب عالِم الرياضات الفرنسي بليز باسكال؛ فإنّه مهما قلّت الدلائل على وجود الله، فإنَّ العقوبة التي تنتظر الاختيار الخاطئ هي أكبر.

أحكمُ الطرقِ هي الإيمانُ بالله؛ لأنك لو كنتَ مصيباً فستربح النعمة الكبرى، ولو كنتَ مخطئاً فلن يكون هناك فرقٌ، بينما إنْ لم تؤمن بالله، وكنتَ مخطئاً، فأنت محكوم للعنةٍ أبديةٍ، ولو كنتَ مصيباً، فلن يكون هناك أيّ فرقٍ، وعلى ذلك فالقرار لا يحتاج لذكاءٍ، عليك الإيمان بالله)[١].

---

(١) ينظر: وهم الإله، ريتشارد دوكينز، ترجمة بسام البغدادي ١٠٦، الطبعة العربية الثانية.
بليز باسكال (١٦٢٣ – ١٦٦٢)، عالم رياضيات، فيزيائي، فيلسوف ديني، وأستاذ نثر فرنسي. لقد أرسى الأساس للنظرية الحديثة للاحتمالات، وصاغ ما أصبح يُعرف باسم مبدأ باسكال للضغط، ونشر عقيدة دينية علّمت تجربة الله من خلال القلب وليس من خلال العقل. كان لتأسيس مبدأ الحدس الخاص به تأثير على الفلاسفة اللاحقين مثل جان جاك روسو وهنري بيرجسون وكذلك على الوجوديين.
ينظر: موقع الموسوعة البريطانية
https://www.britannica.com/biography/Blaise-Pascal

فـ (الله إما أنْ يكـون وإمـا ألا يكـون. إنَّـك بحسـب العقـل لا تستطيع ان تراهن على هذا ولا على ذاك. وبحسب العقل لا تستطيع ان تدافع عن كليهما، ولكن المراهنة واجبة وليست اختيارية؛ لأنَّـك خائضٌ في الميدان، فأيّ الأمرين تتخير؟ وبما أنَّ الاختيار محتوم. لك أنْ تخسر شيئين: الحقيقة والخير. وأنْ تعرض شيئين: عقلك وإرادتك، معرفتك وسعادتك، ولطبيعتك أنْ تتقـي شـيئين: الظـلال والشـقاء. إنَّ عقلك لا يؤذيه اختيار هذا أكثـر مـن اختيـاره ذاك مـا دام الاختيـار محتوماً، ولكن سعادتك؟، فلنوازن بين الربح والخسران، إنَّ الله موجـود، ولنعتبر هذين الواقعين إذا ربحت فقد ربحت كـل شـيء، وإذا خسـرت فإنَّك لا تخسر شيئاً، فراهن إذن على أنَّه موجود ولا تتردد.

عندما يكون في جانبك حظ واحد من حظوظ لا حصر لها فإنّك على صواب اذا خاطرت بواحد لتحصل علـى اثـنين. وإنّـك علـى خطأ عندما تكون مجبراً على اللعب وترفض أنْ تخاطر بحياةٍ مقابـل ثلاث في لعبةٍ يكون لك فيها حظٌ واحد من حظوظٍ لا حصر لها.

إذن لا فائدة من القول بأنّك في ريبةٍ من الربح وأنّك على يقـينٍ من أنّك تخاطر)[1].

---

(١) ينظر: خواطر بليز باسكال ٨٣ – ٨٤، ترجمـه للعربيـة أدوار البسـتاني. اللجنـة اللبنانية لترجمة الروائع بيروت ١٩٧٢ م، توزيع المكتبة الشرقية ١٩٨٢م، بيروت.

وإنَّما " لن يكون هناك أيّ فرقٍ "؛ لأنَّ الإنسان يكون قد قرّر -بإرادته- الالتزام بإجراءات وقائيّة يتحصن بها ممّا خاف منه على نفسه؛ كما يمتنع الإنسان -أحياناً- عن أمور يتوقّع تأثيرها السلبي على صحته، ثمَّ يتضح له عدمُ فاعليتها في ذلك، ولأنَّه إجراء وقائيّ فلا لوم عليه و" لن يكون هناك أيّ فرقٍ " عنده بعدما قد ضمن سلامة نفسه، حتى لو اعترض عليه غيره في ضرورة هذا الإجراء، وأنَّه قد منع نفسه من ممارسة بعض الأمور، لكنّ الممتنع لا يرى ضيراً في ذلك، بل يجده هو الإجراء المناسب.

وهو ما يؤكد تمتّع الإنسان بحريّة الاختيار وعدم جبره على ما يصدر منه، بل يملك القرار الكامل في ذلك؛ لأنَّه ذو إرادة تحميه من جبره على ما لم يقتنع به -حتى لو كان اقتناعاً نِسبياً-.

ولّما كان الإيمان هو: التصديق[1]، ومن خصائصه أنَّه لا يكون إلّا بعد الاقتناع بالبرهان الذي يُقام على المدّعى، ثمّ يتحوّل الاقتناع الى اعتقاد بصحة ما آمن به، فهو فعلٌ إراديٌ للإنسان، يسعى لتحقيقه عندما يتأكد من أهميته في نيل الرُقيّ المعنويّ والمعرفيّ، حتى يُنقذه من عقوبة الجحود ومخالفة لأحكام العقل بوجوب شكر المنعم، ودفع الضرّر المحتمل.

(١) ينظر: العين، الفراهيدي ٨ / ٣٨٩.

ولكن لدوكينز رأيٌ آخر؛ حيث يقول: (الإيمان ليس شيئاً تقــرّره كالسياسة،وعلى الأقل فأنا لا أستطيع فعلَهُ بإرادتي)[(١)]!!.

فهو بهذا يُظهر موقفه الشخصي الرافض للإيمـان بمظهـر الحقيقـة المطلقة، ويحاول إقناع الآخر به، لكنَّه لم يقدّمه بأسـلوب مقنـع؛ لأنَّ الإيمان لم يُصنّفه العلم من المستحيل[(٢)]، بل مـا زال أمـراً اختياريـاً، فيستطيع الإنسان بكامل إرادته أنْ يقرّر الإيمـان بوجـود الإلـه، أو عدم الإيمان، وإذا آمن بوجوده، فيكون بعد اقتناعـه بدلالـة الأدلـة العقلية على ذلك، وليس قراراً مفروضاً عليه من أحد، فهو حتى لـو تأثر بإقناع غيره له، وفعلاً دخل حقل السياسة أو غيرها من حقول الحياة بسبب ذلك، لكنه لم يفقد سيطرته كاملاً، وإنَّما اختاره بإرادته.

وإلّا إذا لا يملك الإنسان اتخاذ القرار، فمَنْ يقرّر بدلاً عنه؟، وهل يعقل فرض القرار دائماً على أفراد الإنسان مع اختلاف مستوياتهم؟.

نعم، هو رأيٌ لدوكينز كقوله: (أنا أهاجم أيَّ نوعٍ من الآلهة، كـل ما هو خارق وما ورائي أينما وحيثما وُجد أو سيوجد)[(٣)].

---

(١) ينظر: وهم الإله ١٠٦.

(٢) ينظر: الجديد في الانتخاب الطبيعي، ريتشارد دوكينز، ترجمة: د. مصطفى ابراهيم فهمي ٢٢٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٣) ينظر: وهم الإله، ريتشارد دوكينز ٣٨.

ومن الواضح تأثّره في فهمه للـدين بـالقراءة المسـيحية، ويبـدو بسبب كونها السائدة في محيط بيئته تلك التي لم يستطع الانفتاح على غيرها، بما انعكس على آرائه ومواقفه التي ساقها مـن دون إشـارةٍ الى تكونّها في أجواء مؤطرة بقناعات خاصّة وفقاً لمنظارٍ معينٍ، حتى حجَبَت عنه القراءات الأُخر للدين، فكان دوكينز مؤدلجاً بامتياز؛ إذ حددته رؤية خاصة فانساق معها، ثمّ سرعان ما تخلّى عنها الى الضد منها، وصار الإله وهماً!!.

في الوقت الذي كانت إشكاليته مع بعض أتباع الإله، لكنّه لم يشأ التفكيك بين الجزء والكل؛ حيث تشكّل موقفه من الـدين كلّـه بمـا انطبع في نفسه من متديّن، فانتقل بسـرعة مـن الـيمين الى اليسـار، وألغى حتى احتماليّة صحة الـدين بوصـفه منـهجاً فكريـاً، يعتمـد منظومةً من البراهين والأدلة الفلسفية والوجدانية والبيانية، بما يجعله في عداد القضايا المحتملَة لا المستحيلة أو المنفية.

وبذلك يكون دوكينز قد خالَفَ (قوانين الاحتمالية –القائمة علـى أنَّ وجود الله إما فرضيّة– نظرية علمية كغيرها تـدخل ضـمن الـلا أدرية المؤقتة –فلا تُنفى، وإما يكـون– وجـود الله حقيقـة علميّـة، وقابلة للاكتشاف من حيث المبدأ على الأقل إنْ لم يكن عمليّاً.

–وعلى الاحتمالين فهل يصح قوله–: أعيش حياتي بفرض أنه غير موجود... ليس هناك إله)[١]؟!، أو هو مطالَبٌ بإبقاء احتمال ما ذكره عالِمُ الرياضات باسكال (ت ١٦٦٢م) من برهان السبر والتقسيم[٢] الذي يؤكد حقيقةَ وجودِ الإلهِ، وهو:

المُعطى الرابع:

البرهان الذي اعتمده الإمامُ جعفر الصادق عليه السلام (ت ١٤٨هـ / ٧٦٥م) قبل باسكال، مذ تسعمئة عام، حينما أجابَ ابْنَ أَبِي الْعَوْجَاءِ[٣] قائلاً: (إِنْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُ –وَلَيْسَ كَمَا تَقُولُ– نَجَوْنَا ونَجَوْتَ، وإِنْ يَكُنِ الأَمْرُ كَمَا نَقُولُ –وهُوَ كَمَا نَقُولُ– نَجَوْنَا وهَلَكْتَ)[٤]؛ وذلك انطلاقاً من:

---

(١) ينظر: وهم الإله، ريتشارد دوكينز ٥١ – ٥٣ بتوضيح.

(٢) السَبر والتقسيم: حصر الأوصاف التي يُظن أنها علّة الحكم، ثم إبطالها الواحد تلو الاخر إلا واحداً منها؛ حيث يتعين كونه علّة، وقد يسمى «برهان الاستقصاء»، أو طريقة «الدوران والترديد»، وهو أمرٌ نافعٌ كثيراً في المناظرة والجدل، ينظر: معجم لغة الفقهاء، محمد قلعجي ٢٣٩، المنطق، الشيخ محمد رضا المظفر ٢ / ٢٩٤.

(٣) عبد الكريم بن أبي العوجاء: زنديق–ملحد–مغتر، لما أُخذ ليُضرب عنقه قال: لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث، أُحرم فيه الحلال وأُحلل الحرام، قتله محمد بن سليمان العباسي الأمير بالبصرة، ينظر: لسان الميزان، ابن حجر ٤ / ٥١.

(٤) الكافي، الشيخ الكليني ١ / ٧٨، ح ٢، وقد رُوي أيضاً في المصدر نفسه ٧٥ –

٧٧: جواب الإمام الصادق عليه السلام له بقوله: (إِنْ يَكُنِ الأَمْرُ عَلَى مَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ -وهُوَ عَلَى مَا يَقُولُونَ، يَعْنِي أَهْلَ الطَّوَافِ- فَقَدْ سَلِمُوا وعَطِبْتُمْ، وإِنْ يَكُنِ الأَمْرُ عَلَى مَا تَقُولُونَ -ولَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ- فَقَدِ اسْتَوَيْتُمْ وهُمْ.

– فعقّب عبد الكريم على ذلك بالسؤال الآتي-: يَرْحَمُكَ اللَّه وأَيَّ شَيْءٍ نَقُولُ وأَيَّ شَيْءٍ يَقُولُونَ؟، مَا قَوْلِي وقَوْلُهُمْ إِلَّا وَاحِدٌ.

فَقَالَ: وكَيْفَ يَكُونُ قَوْلُكَ وقَوْلُهُمْ وَاحِداً؟!، وهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ لَهُمْ مَعَاداً وثَوَاباً وعِقَاباً، ويَدِينُونَ بِأَنَّ فِي السَّمَاءِ إِلَهاً، وأَنَّهَا عُمْرَانٌ، وأَنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ السَّمَاءَ خَرَابٌ لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ.

قَالَ -عبد الكريم-: فَقُلْتُ لَه: مَا مَنَعَه إِنْ كَانَ الأَمْرُ كَمَا يَقُولُونَ أَنْ يَظْهَرَ لِخَلْقِه، ويَدْعُوَهُمْ إِلَى عِبَادَتِه؛ حَتَّى لَا يَخْتَلِفَ مِنْهُمُ اثْنَانِ؟، ولِمَ احْتَجَبَ عَنْهُمْ؟، وأَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ، ولَوْ بَاشَرَهُمْ بِنَفْسِه كَانَ أَقْرَبَ إِلَى الإِيمَانِ بِه.

فَقَالَ لِي: كَيْفَ احْتَجَبَ عَنْكَ مَنْ أَرَاكَ قُدْرَتَه فِي نَفْسِكَ؟!؛ نُشُوءَكَ ولَمْ تَكُنْ، وكِبَرَكَ بَعْدَ صِغَرِكَ، وقُوَّتَكَ بَعْدَ ضَعْفِكَ، وضَعْفَكَ بَعْدَ قُوَّتِكَ، وسُقْمَكَ بَعْدَ صِحَّتِكَ، وصِحَّتَكَ بَعْدَ سُقْمِكَ، ورِضَاكَ بَعْدَ غَضَبِكَ، وغَضَبَكَ بَعْدَ رِضَاكَ، وحُزْنَكَ بَعْدَ فَرَحِكَ، وفَرَحَكَ بَعْدَ حُزْنِكَ، وحُبَّكَ بَعْدَ بُغْضِكَ، وبُغْضَكَ بَعْدَ حُبِّكَ، وعَزْمَكَ بَعْدَ أَنَاتِكَ، وأَنَاتَكَ بَعْدَ عَزْمِكَ، وشَهْوَتَكَ بَعْدَ كَرَاهَتِكَ، وكَرَاهَتَكَ بَعْدَ شَهْوَتِكَ، ورَغْبَتَكَ بَعْدَ رَهْبَتِكَ، ورَهْبَتَكَ بَعْدَ رَغْبَتِكَ، ورَجَاءَكَ بَعْدَ يَأْسِكَ، ويَأْسَكَ بَعْدَ رَجَائِكَ، وخَاطِرَكَ بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي وَهْمِكَ، وعُزُوبَ مَا أَنْتَ مُعْتَقِدُه عَنْ ذِهْنِكَ.

مَا أَعْجَبَ هَذَا تُنْكِرُ اللَّه وتَشْهَدُ أَنِّي ابْنُ رَسُولِ اللَّه؟!... أَمَصْنُوعٌ أَنْتَ أَوْ غَيْرُ مَصْنُوعٍ؟.

فَقَالَ عَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ أَبِي الْعَوْجَاءِ :بَلْ أَنَا غَيْرُ مَصْنُوعٍ، فَقَالَ لَه: فَصِفْ لِي لَوْ كُنْتَ مَصْنُوعاً كَيْفَ كُنْتَ تَكُونُ؟، فَبَقِيَ عَبْدُ الْكَرِيمِ مَلِيّاً لَا يُحِيرُ جَوَاباً.

فَقَالَ لَه عليه السلام: فَإِنْ كُنْتَ لَمْ تَعْلَمْ صِفَةَ الصَّنْعَةِ، فَاجْعَلْ نَفْسَكَ مَصْنُوعاً؛ لِمَا تَجِدُ فِي نَفْسِكَ مِمَّا يَحْدُثُ مِنْ هَذِه الأُمُور.

فَقَالَ لَه عَبدُ الْكَرِيمِ سَأَلتَنِي عَنْ مَسْأَلَةٍ لَمْ يَسْأَلْنِي عَنهَا أَحَدٌ قَبلَكَ، ولَا يَسْأَلَنِي أَحَدٌ بَعْدَكَ عَنْ مِثْلِهَا.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّه عليه السلام: هَبْكَ عَلِمْتَ أَنَّكَ لَمْ تُسْأَلْ فِيمَا مَضَى، فَمَا عَلَّمَكَ أَنَّكَ لَا تُسْأَلُ فِيمَا بَعْدُ؟، عَلَى أَنَّكَ يَا عَبدَ الْكَرِيمِ نَقَضْتَ

قَوْلَك؛ لأَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ الأَشْيَاءَ مِنَ الأَوَّلِ سَوَاءٌ، فَكَيْفَ قَدَّمْتَ وأَخَّرْتَ، يَا عَبْدَ الْكَرِيمِ أَزِيدُكَ وُضُوحاً أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ مَعَكَ كِيسٌ فِيه جَوَاهِرُ فَقَالَ لَكَ قَائِلٌ: هَلْ فِي الْكِيسِ دِينَارٌ؟ فَنَفَيْتَ كَوْنَ الدِّينَارِ فِي الْكِيسِ، فَقَالَ لَكَ: صِفْ لِيَ الدِّينَارَ -وكُنْتَ غَيْرَ عَالِمٍ بِصِفَتِه- هَلْ كَانَ لَكَ أَنْ تَنْفِيَ كَوْنَ الدِّينَارِ عَنِ الْكِيسِ وأَنْتَ لَا تَعْلَمُ؟، قَالَ: لَا.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّه عليه السلام: فَالْعَالَمُ أَكْبَرُ وأَطْوَلُ وأَعْرَضُ مِنَ الْكِيسِ، فَلَعَلَّ فِي الْعَالَمِ صَنْعَةً مِنْ حَيْثُ لَا تَعْلَمُ صِفَةَ الصَّنْعَةِ مِنْ غَيْرِ الصَّنْعَةِ، فَانْقَطَعَ عَبْدُ الْكَرِيمِ.

قَالَ -عبد الكريم- مَا الدَّلِيلُ عَلَى حَدَثِ الأَجْسَامِ؟، فَقَالَ عليه السلام: إِنِّي مَا وَجَدْتُ شَيْئاً صَغِيراً ولَا كَبِيراً إِلَّا وإِذَا ضُمَّ إِلَيْه مِثْلُه صَارَ أَكْبَرَ، وفِي ذَلِكَ زَوَالٌ وانْتِقَالٌ عَنِ الْحَالَةِ الأُولَى، ولَوْ كَانَ قَدِيماً مَا زَالَ ولَا حَالَ؛ لأَنَّ الَّذِي يَزُولُ ويَحُولُ يَجُوزُ أَنْ يُوجَدَ ويُبْطَلَ، فَيَكُونُ بِوُجُودِه بَعْدَ عَدَمِه دُخُولٌ فِي الْحَدَثِ، وفِي كَوْنِه فِي الأَزَلِ دُخُولُه فِي الْعَدَمِ، ولَنْ تَجْتَمِعَ صِفَةُ الأَزَلِ والْعَدَمِ والْحُدُوثِ والْقِدَمِ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ، فَقَالَ عَبْدُ الْكَرِيمِ: هَبْكَ عَلِمْتَ فِي جَرْيِ الْحَالَتَيْنِ والزَّمَانَيْنِ عَلَى مَا ذَكَرْتَ واسْتَدْلَلْتَ بِذَلِكَ عَلَى حُدُوثِها، فَلَوْ بَقِيَتِ الأَشْيَاءُ عَلَى صِغَرِهَا مِنْ أَيْنَ كَانَ لَكَ أَنْ تَسْتَدِلَّ عَلَى حُدُوثِهِنَّ؟.

فَقَالَ عليه السلام: إِنَّمَا نَتَكَلَّمُ عَلَى هَذَا الْعَالَمِ الْمَوْضُوعِ، فَلَوْ رَفَعْنَاه ووَضَعْنَا عَالَماً آخَرَ، كَانَ لَا شَيْءَ أَدَلَّ عَلَى الْحَدَثِ مِنْ رَفْعِنَا إِيَّاه ووَضْعِنَا غَيْرَه، ولَكِنْ أُجِيبُكَ مِنْ حَيْثُ قَدَّرْتَ أَنْ تُلْزِمَنَا، فَنَقُولُ: إِنَّ الأَشْيَاءَ لَوْ دَامَتْ عَلَى صِغَرِهَا، لَكَانَ فِي الْوَهْمِ أَنَّه مَتَى ضُمَّ شَيْءٌ إِلَى مِثْلِه، كَانَ أَكْبَرَ، وفِي جَوَازِ التَّغْيِيرِ عَلَيْه، خُرُوجُه مِنَ الْقِدَمِ، كَمَا أَنَّ فِي تَغْيِيرِه دُخُولَه فِي الْحَدَثِ).

المُعطى الخامس:

الضرورة العقلية ومقتضى الفطرة والوجدان، من لزوم دفع الضرر ولو كان محتمَلَ الحصول، ولابديّة توقي التضرّر به، فضلاً عن مظنون الحصول أو معلومه.

وقد جرى على هذا القانون الفطري، حتى غيرُ العاقل؛ إذ يتحاشى الخطر، ويتحامى الإصابة به -مع اختلاف درجات إدراك ذلك بين العاقل وغيره طبعاً-.

ولا يشك العاقل في أنَّ العقوبة واللعنة الأبدية التي تنتظر الاختيار الخاطيء -كما ذكر باسكال- ضررٌ محتمَلٌ، بل متيقنٌ، وسبب عدمِ شك العاقل بذلك وتيقنه منه، هو تتابع تحذيراتُ المصلحين، وتوالي تخويفاتُهم من عذاب العاصي، بما يوجب الحذر على مَنْ عرف ذلك واطلع عليه؛ إذ لا يمكن للعاقل أنْ ينفي احتمالَ حصولهِ، بل المحسوس بالوجدان أنَّ العاقل يحرص دائماً على النجاة، بقدر خطورة الضرر المُحتمل؛ إذ يُدرك بعقله وجود قيمة حقيقية للضرر واحتمال حدوثه، فتُلزمه بالابتعاد عنه، ممّا يصيّر منها ضرورة عملية لا خلاف بشأنها؛ إذ يجري العقلاء وغيرهم على الابتعاد عن مصدر الضرر، بلا فرقٍ بين أنواعه، فيشمل ما حذّر منه باسكال وغيره من سابقيه أو لاحقيه أمثال:

١. الفيلسوف الأمريكي: ألْفِن بلانتِينْغا (١٩٣٢م ...) القائل: (إنَّ الإيمان بالإله هو اعتقاد أساسيّ تماماً، مشابه للاعتقاد بالحقائق الأساسيّة)[1]، (يعتبر شعوراً فطرياً بديهياً، لا يحتاج الى دليل، تماماً كمفاهيم بديهية أخرى؛ مثل أنَّ الكل أكبر من الجزء، ومثل أنّنا موجودون)[2]، و(من الطبيعي للإنسان أنْ يعتقد بالإله؛ بسبب النظام والترتيب والقوانين التي تحكم الأحداث التي تقع في الطبيعة، ولذلك كثيراً ما يقول:

٢. الفيلسوف الأمريكي: رالف ماكلنيرني (١٩٢٩ - ٢٠١٠م): إنَّ فكرة وجود الإله هي فكرة فطرية، وتبدو كمُسلَّمةٍ تقف ضد الإلحاد، إنَّ الملحدين هم مَنْ يتحمل عبءَ الإثبات)[3].

ولما لم تثبت دعوى «وَهْمُ الإله» أو غيرها، بل سُجلت عليها -وما تزال- اعتراضاتٌ علميةٌ كثيرةٌ، ولم يستطع المدّعون إبطالها وردّها، بل كان العلم الحديث من مثبتات حقيقة وجود الإله، وليس دالاً على وهميته.

ولذا يُلحظ -بوضوح- عدمُ استقطاب هذه الدعوى لعدد آخر

---

(١) ينظر: هناك إله، أنتوني فلو، ترجمة: د. صلاح الفضلي ٧٧، ط ٢، ١٤٣٨هـ.

(٢) ينظر: رحلة عقل، د. عمرو شريف ٧١، نيو بوك-القاهرة، ط: العاشرة ٢٠١٧م.

(٣) ينظر: هناك إله، أنتوني فلو، ترجمة: د. صلاح الفضلي ٧٧، ٩٧ - ٩٨.

حتى يؤمن بالفكر المادي؛ (فإنَّ مجموع الملحدين، صغيرٌ بالقياس الى مجموع سكان العالَم المؤمنين؛ تبلغ نِسبتهم بالقياس الى مجموع سكان العالَم ١٤٪.

وأسس الإلحاد تضعف يوماً بعد يوم؛ بسبب الفشل النظري في مواكبة التطوّر الحادث في العلم وفلسفة العلوم.

وقد عجزت حركات الإلحاد بمختلف تياراتها عن تقديم بديل للدين، ولم تقدِّم أيَّ حلٍّ للمسائل الفلسفية الكبرى التي تشغل الإنسان.

وقد أنكر الملحدون وجودَ اللهِ؛ لأنَّهم لا يستطيعون أنْ يستدلوا عليه حسيّاً، ولا يستطيعون مشاهدته أو لمسه، ولا تحديده بالتجربة!، ولقد أثبتت الحقائق التأريخية والفكرية أنَّ الإلحاد غريبٌ على المجتمعات)[1].

التشكيك فعلٌ؟ أم ردّةُ فعلٍ؟

وإنَّ ما أوجب تنشيط التشكيك أحياناً في بعض المجتمعات، حتى

---

(١) ينظر: اللاهوت المعاصر ٤٥٢، ٤٦٥، بحث: ثغراتٌ في جدار الإلحاد، (الوعي بالإله من المفهوم الإسلامي الى المفهوم الغربي)، محمد عثمان الخشت -أستاذ فلسفة الدين والمذاهب الحديثة والمعاصرة-، مصر.

تزايد عدد المشككين، هو بعض العوامل الناشئة من:

١. مبالغة شخصٍ في منح الثقة لشخصٍ مؤمن وحُسن الظنّ به، بحيث يجعل من تصرفاته قدوّة ومقياساً يُقاس عليه، لكنّه لا يصارحه بنقد تصرفاته السلبيّة، بل يسارَعَ الى نقدِ النظريّة ورفضِ الإيمان، ولا يسأله عن سبّب تصرّفه، حتى يدافع الآخر عن نفسه، وإذا لم ينجح في دفاعه، فيكون هو -بشخصه- مُداناً دون غيره من المؤمنين؛ كما هو مقتضى الإنصاف عند الحكم على الآخرين.

٢. تقصير أحدٍ في البحث عن الحقيقة، أو تلكأه في إتمام خطوات الوصول الى المعلومة المبحوث عنها، بما يؤدي به الى استنتاج نتائج غير دقيقة، فلا يتوازن في أحكامه عندئذ، ويتجه نحو التشكيك، ويتمرّد على مبدأ الإيمان بوجود خالق للكون.

٣. صدمة نفسيّة أو مجتمعيّة، بما يدفع المصدوم الى رفضه للواقع الذي يعيشه، وتمرّده على بعض القِيم، فيشكّك بها انسياقاً مع وضعه النفسي المحكوم بظرفه الخاص، والذي لم يكن لقناعة شخصية بجدواه، ولا لتأثرٍ بفلسفة فكريّة معيّنة، بل هو اندفاع مع حديث النَفس وما تصاحبه من تصوّرات أوليّة سرعان ما يصدّرها -الشخص- على أنّها نتائج نهائيّة، غافلاً عن طبيعة بعض التصوّرات، وما تعكسه من

أوهام تعترض الإنسان، فيتعامل معها على أنّها حقائق مطلقة، وأنّها قد نشأت في ظرف نفسيّ أو مجتمعيّ أدى الى البحث عمّا يعوّض هذا الموقف الضاغط، فكان في التشكيك فرصة لتحقيق ذلك.

وإنَّ جميع هذه العوامل لا تصلح تبريراً للمواقف السلبيّة التي اتخذها المُشكّكون من دلالة البرهان الكونيّ على وجود الخالق، وأنَّه الله تعالى؛ حيث يتعامل الإنسان بتماسّ مباشر -آنيّاً- مع موجودات هي وإنْ اختلفت صورها، لكنّها تتفق في انتظامها بأنظمة عملٍ دقيقةٍ، ضمن جدولة وتوقيتات محدّدة، وذلك من أجل أداء أدوارها التكامليّة، التي تبعث الحركة والتنميّة في مختلف الكائنات.

وإنَّ هذا التقنين في الوظائف والاتساق في المظاهر، ممّا يدلان على وجود خالقٍ مريدٍ لهذه الأوضاع الكونيّة، عالمٍ بما ينتج عنها من نفعٍ شاملٍ للعباد والبلاد بما فيها من موجودات تتضامن في أدوراها الحياتية لتحقق الغاية من إيجاد المُوجد لها، وإلّا لكانت عبثيّة، وهذا ما لا يتفق مع جمال المنظر، وكمال المخبر، ولا ينسجم مع دقة الخَلق الكاشفة عن قدرةٍ فائقةٍ على إدارة تنوّع الموجودات، وهو ما لم يُسجَّل لغير خالق السموات والأرض، وهو الله تعالى؛ لأنَّ مَنْ عداه -مهما قدّم من اختراعات وإبداعات- فهو يعمل في نطاق تخصّصه الدقيق أو العامّ دون ما عداه، كما أنَّه

يتدرّج في ذلك كلّه من خلال معطيات بحوثه المعتمدة على فعالياته العقليّة أو العضويّة الأخرى، والتي ما كانت لولا أنْ خلَقَها الله تعالى له ولغيره من المخلوقات.

وعليه فإنَّ التشكيك بوجود الخالق وأنَّه الله تعالى يُمثِّل إنكاراً لبديهيّات اتضحت لمَنْ عرَضَها بمختلف أساليب البيان وأنماط التعبير، في مختلف الزمكان؛ ومنهم:

١. الفيلسوف الإنجليزي: جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤م): (فإنكار الله حتى لو كان بالفكر فقط، يفكّك جميع الأشياء، أما بالنسبة الى الآراء العلمية، وإنْ لم تكن خالية تماماً من الخطأ، فإنّها إذا لم تكن تود الهيمنة على الآخرين، فليس ثَمّة مبرّر لعدم تسامحنا معها)[١].

٢. الفيلسوف الفرنسي: فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨م): (إنَّ الاعتقاد القاطع بعدم وجود إله، خطأ أخلاقي مروّع... إنه من الأفضل بكثير من الناحية الأخلاقية أنْ نؤمن بوجود إله من عدم الإيمان بوجوده... مصلحة جميع البشر تقتضي الإيمان بوجود إله يعاقب ما تعجز العدالة الإنسانية عن عقابه)[٢].

---

(١) ينظر: رسالة في التسامح، جون لوك ٥٧ – ٥٨، ترجمة منى أبو سنه، المجلس الأعلى للثقافة –مصر ١٩٩٧ م.

(٢) الإلحاد في الغرب، د. رمسيس عوض ١٧٦، سينا للنشر –القاهرة ١٩٩٧ م.

٣. الفيلسوف البريطاني: أنتوني فلــو (١٩٢٣ - ٢٠١٠م): (إنْ كان هناك إله أو آلهة لهم علاقة بأحوال البشر، فإنَّ من الطــيش أنْ لا نحاول أنْ نقف في الجانب الذي يقف فيه هؤلاء الآلهة)[١]؛ (فإنَّ ما أثبته العلم الحديث من تعقيدٍ مُذهلٍ في بِنية الكون، يشير الى وجود مصممٍ ذكي)[٢].

٤. الفيلسوف البريطاني: ريتشارد سوينبرن (١٩٣٤ م...): (إنَّ نظام الطبيعة يوجد فيه تخطيط وغاية يُتّجه اليهــا، وأنَّ الموجــودات الواعيّة تحتاج الى الله الذي يكون مسئولاً عن هذه الظاهرة)[٣].

وذلك لوضوح (أنَّ موجِدَ الكون المادي المحدود، لابــد أنْ يكــون غير ماديّ، وأنْ يكون كليّ الوجود)[٤].

(وإذا كان من المستحيل التعرّف على حقيقة الإنسان، فــإنَّ هــذا العجز أولى في حق الإله)[٥]، (إذا كان العدم يمتدّ الى مــا لا نهايــة في

---

(١) هناك إله، أنتوني فلو، ترجمة: د. صلاح الفضلي ٣٧.

(٢) ينظر: رحلة عقل، د. عمرو شريف ٧٤.

(٣) ينظر: مفهوم الألوهية في فلسفة ريتشارد سوين بيرون، عماد الدين إبراهيم عبد الرزاق، ٤.

(٤) ينظر: رحلة عقل، د. عمرو شريف ٧٢.

(٥) رحلة عقل، د. عمرو شريف٦٣.

القِدم، وإذا كان للكون بداية، فلِمَ نشأ الكون في هذا الوقت الذي نشأ فيه؟، لِمَ تُرِكَ الكون دون نشأة لفترة، ثم حدث في وقت مّا في الزمن اللانهائي أنْ خرج الكون للوجود؟، لابد أنَّ هناك عاملاً مُرَجِّحاً دفَعَهُ للوجود)[١].

فسبحان الله الخالق الذي أتاح لكل فرد وفئة من العقلاء معرفتَهُ، ودعاهم الى التعرّف عليه بما أوجده من مخلوقاته؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾[٢].

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٣].

---

(١) ينظر: رحلة عقل، د. عمرو شريف ٩١.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٨٥.

(٣) سورة آل عمران، الآيتان ١٩٠ – ١٩١.



المستوى الثاني:

برهان الصدّيقين

المستوى الثاني: برهان الصدّيقين

وهو ما يُعتمد فيه على أنَّ الدليل على وجود الله تعالى هو ذاته نفسها، من دون حاجة إلى معرّف، يعني أنَّ شروق الشمس دليلٌ على الشمس، وإذا خفيت على أحدٍ، فخفاؤها بسبب شدّة ظهورها ونورها، بحيث لا يتمكن الناظر من التحديق بها، والنظر إليها، فقد ينفي وجود الشمس لعدم قدرته على النظر، ولكنه ليس لانعدام وجودها، وإنَّما لعجزه ومحدوديّة إمكاناته.

وبهذا تتضح دقة برهان الصدّيقين، وأنَّه ليس خياراً ملائماً لمختلف شرائح المجتمع؛ وذلك لكونه برهاناً معتمداً على مستوى عالٍ من المعلومات الفلسفيّة، ولا يكتفي بدراسة المخلوقات حتى يُعرف وجود اللَّه تعالى -كما تقدم في برهان النظم- ، وإنّما يهتم هذا النمط من الاستدلال بالتدبّر في ذات الله المقدّسة حتى يؤمن الإنسان بوجود ذاته تعالى.

وهو ما يمكن استلهامه من قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ شَهيدٌ)[١]، أو من المروي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: (يا مَنْ دَلَّ عَلى ذاتِهِ بِذاتِهِ)[٢]، أو عن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام: (بِكَ عَرَفْتُكَ وَأَنْتَ دَلَلْتَنِي عَلَيْكَ ودَعَوْتَنِي إِلَيْكَ وَلَوْلا أَنْتَ لَمْ أَدْرِ ما أَنْتَ)[٣]، أو (عَنْ مَنْصُورِ بْنِ حَازِمٍ قَالَ قُلْتُ لأَبِي عَبْدِ اللَّه – الصادق – عليه السلام: إِنِّي نَاظَرْتُ قَوْماً فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ اللَّه جَلَّ جَلَالُه أَجَلُّ وأَعَزُّ وأَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُعْرَفَ بِخَلْقِه، بَلِ الْعِبَادُ يُعْرَفُونَ بِاللَّه، فَقَالَ: رَحِمَكَ اللَّه)[٤]، ونحوها من النصوص الدالّة على أنَّ الله تعالى قد أتاح معرفة وجوده لطالبيها من خلال وجوده نفسه، وما عليهم لو أرادوا معرفته إلّا استذكار بعض المعلومات البديهية، مثل: إنَّ الموجودات ليست جميعاً ممكنة الوجود، بل فيها ما هو واجب الوجود، وإلّا فمَنْ أوجد الممكنة؛ وذلك لاستحالة وجودها من دون علّة موجدة، وهذه العلّة لا بُدَّ من وجودها؛ فإنّها لو كانت معدومة لما أثّرت وجوداً في غيرها، فانحصرت العلّة بواجب الوجود؛ لكونه

(١) سورة فصلت، من الآية ٥٣.

(٢) بحار الأنوار، العلامة المجلسي ٨٤ / ٣٣٩، رقم ١٩.

(٣) مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي ٥٨٢.

(٤) الكافي، الشيخ الكليني ١ / ٨٦، ح ٣.

موجوداً غير معدوم، وواجب الوجود غير ممكن.

وبعبارة أخرى: إنّ الموجود إمّا واجب، أو ممكن، والممكن محتاج إلى غيره حتى يوجد، وما يؤثر الوجود في غيره يستحيل أنْ يكون هو العدم؛ وذلك لوضوح قصور العدم عن التأثير بشيء، فوجب أنْ يكون المؤثرُ موجوداً غير معدوم، ووجب أنْ يكون واجب الوجود؛ لأنَّه الذي لا يحتاج الى غيره، وما عداه ممكن فيحتاج الى غيره.

وبهذا قد أتاح برهان الصدّيقين للعقل معرفة وجود الخالق، من خلال حتميّة وجوده ووجوبه؛ لأن حقيقة الوجود إما واجبة وإما تستلزمها، إذن الواجب بالذات موجود، وهو المطلوب[1]؛ إذ (كل موجود إذا التُفت إليه، فإمّا أنْ يجب له الوجود في نفسه، أو لا، فإنْ وجب، فهو الواجب وجوده من ذاته، وإنْ لم يجب، فلا يقال إنَّه ممتنع بذاته؛ بعد ما فُرض موجوداً، فيكون الذي لا يجب ولا يمتنع، هو الممكن)[2].

ومن الواضح اعتماد هذا البرهان على منهج الكشف الذاتيّ؛ إذ يحاول الصِّديقون معرفة الله تعالى به لا بغيره؛ وذلك عِبر الانتقال من

---

(١) ينظر: نهاية الحكمة، السيد محمد حسين الطباطبائي، ٣٢٨.

(٢) ينظر: الإشارات والتنبيهات، أبو علي سينا ٣ / ١٨.

لازمٍ من لوازم الوجود إلى لازمٍ آخر[١]؛ لأنَّ الوجود من الحقائق الثابتة، فإنْ كان بنفسه فهو، وإن ارتبط بغيره، فمَنْ هو غيرُهُ؟، فكان الوجودُ برهاناً على الموجود؛ لانتهاء ما بالعرض إلى ما بالذات، وهذه قضايا يقينية واقعية، لا يقبل العقل بخلافها، وقد عرضها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عندما:

١. قال: (اعْرِفُوا اللَّه بِاللَّه)[٢]، (يَعْنِي: أَنَّ اللَّه خَلَقَ الأَشْخَاصَ والأَنْوَارَ والْجَوَاهِرَ والأَعْيَانَ؛ فَالأَعْيَانُ: الأَبْدَانُ، والْجَوَاهِرُ: الأَرْوَاحُ، وهُوَ جَلَّ وعَزَّ لَا يُشْبِه جِسْماً ولَا رُوحاً، ولَيْسَ لأَحَدٍ فِي خَلْقِ الرُّوحِ الْحَسَّاسِ الدَّرَّاكِ أَمْرٌ ولَا سَبَبٌ، هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِخَلْقِ الأَرْوَاحِ والأَجْسَامِ، فَإِذَا نَفَى عَنْه الشَّبَهَيْنِ شَبَه الأَبْدَانِ وشَبَه الأَرْوَاحِ فَقَدْ عَرَفَ اللَّه بِاللَّه، وإِذَا شَبَّهَه بِالرُّوحِ أَوِ الْبَدَنِ أَوِ النُّورِ فَلَمْ يَعْرِفِ اللَّه بِاللَّه)[٣].

٢. أجاب مَنْ سأله: (بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟، قَالَ: بِمَا عَرَّفَنِي نَفْسَه، قِيلَ: وكَيْفَ عَرَّفَكَ نَفْسَه؟، قَالَ: لَا يُشْبِهُه صُورَةٌ، ولَا يُحَسُّ بِالْحَوَاسِّ، ولَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ، قَرِيبٌ فِي بُعْدِه، بَعِيدٌ فِي قُرْبِه، فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، ولَا يُقَالُ شَيْءٌ فَوْقَه، أَمَامَ كُلِّ شَيْءٍ، ولَا يُقَالُ لَه أَمَامٌ،

---

(١) ينظر: نهاية الحكمة، السيد محمد حسين الطباطبائي ٣٢٧.

(٢) الكافي، الشيخ الكليني ١ / ٨٥ ح ١.

(٣) الكافي، الشيخ الكليني ١ / ٨٥ ح ١.

دَاخِلٌ فِي الأَشْيَاءِ لَا كَشَيْءٍ دَاخِلٍ فِي شَيْءٍ، وخَارِجٌ مِنَ الأَشْيَاءِ لَا كَشَيْءٍ خَارِجٍ مِنْ شَيْءٍ، سُبْحَانَ مَنْ هُوَ هَكَذَا ولَا هَكَذَا غَيْرُه، ولِكُلِّ شَيْءٍ مُبْتَدَأٌ)[1].

وإنّ تعدّد أنماط الاستدلال من عوامل التوضيح، وهو ما عمل عليه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام؛ حيث اهتمّ جداً بتسليط الأضواء على التوحيد بما ييسّر فهمه للإنسان بمختلف مستوياته الذهنيّة، ليعرف وجود خالقه معرفةً واعيّة، تستند الى واضح المعلومات المتحصلة من براهين وجدانيّة يدركها العاقل بفطرته، ليشكر المُنعم عليه؛ التزاماً منه بحكم العقل، فيعبده اعتقاداً منه بأنَّ الله منعمٌ بنِعَمٍ يعدّها العباد ولا يحصوها؛ لكونها مستمرّة في مختلف الزمان والمكان وسائر أحوال الإنسان من مرحلة تكوّنه جنيناً الى أنْ يُعرض يوم القيامة للحساب.

وما دام الإنسان يتنعّم بنِعَم الله عليه، فيلزمه عقلاً شكرها والاعتراف تعظيماً للمُنعِم بها، وإظهاراً للحال الجميل[2].

ومن الواضح بأنَّه من لوازم كون الله منعِماً هو ألّا تُجحد نعمُهُ،

---

(١) الكافي، الشيخ الكليني ١ / ٨٥ - ٨٦، ح ٢.

(٢) ينظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ٣٠١، رقم ١٢١١، مادّة (شَكَرَ).

وإلّا لكان الجاحدُ مخالفاً لحكم العقل بوجوب شكر المـنعِم، وعنـدها فيُدان عقلاً؛ إذ تلزمه الحجة.

وهناك مستويات استدلال عقليّة وحسيّة أُخر لإثبات التوحيـد[1]،

---

(١) ينظر: الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، محمد بن أحمد بن محمد بن رشـد (ت ٥٩٥ هـ)، ١١٨ – ١٢٠، مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٨ م.

وأيضاً من مستويات البراهين على التوحيد، هو:

أ- برهانُ **العناية**؛ إذ العنايةُ بالإنسان وإتاحة فرص انتفاعه مـن جميـع الموجـودات وخلقها من أجله تدلّ على وجود مَنْ أراد ذلك كلّه؛ لأنّه يستحيل وجودها صـدفة، بل لا بدّ من موجدٍ قد جعلها موافقة لوجود الإنسان؛ إذ لا يمكـن حصـولها اتفاقـاً، وهو ما يوجب التيقّن بوجود فاعـلٍ قاصـدٍ مريـدٍ لـذلك، فكانـت معرفـةُ اشـتمال الموجودات على منافع، موجبةً لمعرفة الله تعالى، وأنّه خالقها دون سواه؛ قال تعـالى: **﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِـهِ مِـنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** البقرة: ٢٢.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ الفرقان: ٦١.

ب- برهانُ **الاختراع–الإبداع والخَلق –**؛ إذ يدل إيجاد الحياة واختراعها في الجماد علـى وجود موجدها؛ حيث يستحيل حصولها صدفةً، بل لا بدّ من وجـود خـالقٍ خَلَـقَ فيهـا الحياة وأبدعها بعدما لم تكن، فحدوث الحياة فيها دليلٌ على الموجِد، وهو الله تعالى.

كما تدل الحركة المستمرّة للسماوات على تسخيرها لجميع الخلق؛ لأنَّ كل مخترَع فله مخترِع، ولذلك كان واجباً على مَنْ أراد معرفة الله حـقَّ معرفتـه، أنْ يعـرف جـواهر الأشياء؛ ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات؛ لأنَّ مَنْ لم يعـرف حقيقـة الشيء، لم يعرف حقيقة الاختراع؛ قال تعالى: **﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِـقَ مِـنْ**

بما يساعد على توضيحه لمختلف شرائح الناس، إلّا أنَّ دليل النَظم ودليل الصدّيقين قد امتازا عن غيرهما من طرق الاستدلال بوضوح الخطوات -ولو نِسبياً- لجميع الفئات العُمْريّة والعلمية، من عموم المتلقّين والنخب.

وإنَّ هذا الوضوح كما هو من سمات هذين البرهانَين على التوحيد، كذلك هو من استحقاقات هذه المرحلة التي توجب تحديثاً لوسائل بيان براهين التوحيد العقليّة والفطريّة -الفلسفيّة والوجدانيّة-، كما توجب تجديداً لآليات الخطاب مع الآخر، والاهتمام بالحوار معه انطلاقاً من قاعدة البيانات المشتركة، لكي يفهم التوحيد أو غيره من القضايا الفكريّة بأوضح أسلوب ممكن، وبذلك تتمّ إزاحة ولو بعض الشوائب المعترضة لِمَنْ يقدّم حريّته الشخصيّة على تصحيح فهمه لهذه القضايا المهمّة.

مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ سورة الطارق: ٥ - ٧.

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ سورة الغاشية: ١٧ - ٢٠.

ت- برهان الحدوث؛ إذ يدل حدوثُ العالم بجميع أجزائه حدوثاً زمانياً بعدما لم يكن، على وجود الخالق؛ لأنَّ الموجودات محتاجة بذاتها إلى بارئها وموجدها، فهي غير كائنة بأنفسها، وإنّما أحدثها الله تعالى.

ينظر: الشواهد الربوبية، صدر الدين محمد الشيرازي ١٠٨ بتوضيح واختصار.

وحيث أنّه يتعاطى مع حريّته الشخصية بهذه المساحة الواسعة، كان ضروريّاً تذكيره بلزوم أنْ يرعى حرية غيره أيضاً، ولا يسترسل مع خيارات حريّته الشخصية؛ حتى يُثبت توازنه -فعلاً-، واحترامه لحريّة مَنْ اختار التوحيد، ولم يستبدله بالتشكيك؛ حيث لم يره منسجماً مع ما دلّه على وجود الله خالقاً للكون.

ولو تعارضت الحريّتان فيلزم الاحتكام الى ما يرضى الجميع بحكمه، وهو العقل الذي قضى بلزوم شكر المُنعم، وباستحالة وجود المعلول بلا علّة، وعندها يتضح بأنّه لن يُخالف حكمَ العقل إلّا ذوو الاستفهامات الخاصة، وأنّهم بحاجة الى الاستماع منهم، واتباع أساليب مقنعة لهم عند الإجابة؛ لأنهم جزء من المجتمع، فلا بدّ من توضيح المفاهيم لهم، وترسيخ الحقائق لديهم؛ لئلا تنتشر مظاهر الجهل والتسطيح العلمي، ولا تمتدّ ظواهر التشكيك وموجات ردود الأفعال التي غالباً ما تكون انعكاسات لحالات نفسيّة أو مجتمعية.

وهو ما وثقته تجارب المشكّكين[1]، بما يوجب عقلنة الخطاب الفكري، والاهتمام بتوضيحه معزّزاً بالدليل النقلي والأمثلة، ليُساعدا

---

(١) ينظر: الإلحاد مشكلة نفسية، د. عمرو شريف ١١٩ – ٢١٥، الفصل ٤ – ٦، خرافة الإلحاد، د. عمرو شريف ٤٦٠، نهاية حُلم وهم الإله، د. أيمن المصري ٨١ – ٨٣ – ١٩٥ – ١٩٧.

على فهم دلالة البرهان الكونيّ على التوحيد؛ كما هي ملامح المنهج القرآني الذي التزمه المعصومون عليهم السلام، وقد ثبتت جدواه في جـولات الحوار مع الآخر.



المستوى الثالث:

الدليل النقلي

المستوى الثالث: الدليل النقلي

المستوى الثالث: **الدليل النقلي**[1]؛ وذلك من خلال استعراض

---

(١) إنَّ الاستدلال بالأدلة النقلية على التوحيد، لا يلزم منه إشكالُ الدورِ أو المصادرةِ على المطلوب؛ وذلك:

أولاً: إنَّ هذه الأدلّة النقليّة متضمنة للدليل العقلي على نفي الشريك، والدليل العقلي حجّة على مَنْ لا يؤمن بالأدلة النقلية.

ثانياً: إنَّ صحة الأدلة النقلية -كالآيات والأحاديث- متوقفة على عدم كذب القائل، ولا تتوقف على نفي الشريك، كي يلزم منه الدَوْرْ، وقد ثَبُتَ صدقُ قائليها؛ إذ يستحيل الكذب على الله تعالى؛ لأنَّ الكذب نقصٌ، وقد تنزّه الله عن الاتصاف به، كما يستحيل الكذب من المعصوم عليه السلام؛ لأنَّ تكليفه بالإبلاغ مع احتمال صدور الكذب منه، نقضٌ للغرض من تكليفه بذلك، والمولى الحكيم لا ينقض غرضَهُ.

فتحصّل أنَّ (الأدلة السمعية؛ كقوله تعالى ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾، و﴿**إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ حجةٌ؛ لعدم توقف السمع على الوحدة، وهو أقوى الأدلة)، مقارَنةً بغيرها من أدلة التوحيد؛ **كدليل الحكماء**؛ وهو: لو تعدّد واجب الوجود، لاشتركا في مفهوم واجب الوجود، وامتاز كل واحد بأمرٍ مغاير لما يشتركان به، وإلّا لما كانا اثنين بل واحداً، وحينئذ يكون كل واحد منهما مركباً مما به الاشتراك ومما به الامتياز، وكل مركب ممكن، فيكونان ممكنين، والفرض أنّهما واجبان، وهذا خُلفٌ.

أو **دليل المتكلمين، الذي يسمى «دليل التمانع»**، وهو: أنّه لو كان في الوجود إلاهان قادران عالِمان مُريدان، فلا يخلو إمّا أنْ يريد أحدهما خلاف الآخر، أو لا يريد، وكلاهما

بعض النماذج ومحاولة التأمل في معطياتها التوحيدية:

النموذج الأول:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

فقد دعا الله تعالى عباده الى أنْ ينظروا بتأمل في هذا النظام الكونيّ، ويتفكروا في خلق السماوات والأرض، وأنَّه هل كان ذلك صدفة واتفاقاً، أم هو بصنع صانع؟، ومَنْ هو؟.

ولو كان غير الله تعالى فمَنْ هو؟، ولماذا لم يعرِّف بنفسه ولم يكشف عن أمره؟، كما عرّف الله تعالى بأنه خالق الكون؛ إذ قال: «أو لم ينظروا» أو لم يتفكروا «في ملكوت السماوات والأرض» وعجيبِ صنعهما، فينظروا فيها نظرَ المستدل المعتبر، فيعترفوا بأن لهما خالقاً، ويستدلوا بذلك عليه، «وما خلق الله من شئ» أي: وينظروا فيما خلق الله من أصناف خلقه فيعلموا بذلك أنَّه سبحانه

مُحال، على تفصيل مذكور في محله، ينظر: إرشاد الطالبين الى نهج المسترشدين، المقداد السيوري ٢٤٩ – ٢٥١.

(١) سورة الأعراف، الآية ١٨٥.

خالق جميع الأجسام؛ فإنَّ في كل خلق الله عزّ وجلّ، دلالة واضحة على إثبات وجوده وتوحيده، «وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم» أي: أو لم يتفكروا في احتمال اقتراب أجل موتهم؛ ليدعوهم ذلك إلى أن يحتاطوا لدينهم ولأنفسهم، مما يصيرون إليه بعد الموت، ويزهدوا في الدنيا، «فبأي حديث بعده» بعد القرآن «يؤمنون» مع وضوح أنَّه كلام الله المُعْجِز؛ إذ لم يقدر أحدٌ منهم أنْ يأتي بسورةٍ مثله[1].

فكان حثُّ الآية المباركة على النظر والاستدلال والتفكّر في خلق الله وصنعه وتدبيره؛ لأنَّها براهين على وجود الخالق تعالى وحكمته وقدرته، مع تحذيرها من عاقبة التفريط بترك النظر إلى وقت حلول الموت، وفوات فرصة التفكّر والاستدلال على معرفة الله تعالى وتوحيده؛ وذلك قوله تعالى: وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون[2].

النموذج الثاني:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ

---

(١) ينظر: مجمع البيان، الشيخ الطبرسي ٤ / ٤٠٢ – ٤٠٣.

(٢) ينظر: أحكام القرآن، الجّصاص ٣ / ٤٧.

يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آَمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

فقد بيّن الله تعالى للعباد أنَّ الإنسان:

إمّا أنْ يختار عملاً سيُجزى عليه يوم القيامة بالنار، وهو أسوء اختيار؛ لأنَّ العقل المستقل يحكم بلزوم دفع الضرر ولو كان محتملاً.

ولا يشك عاقلٌ في ضررية النار وما تسبّبه للمكتوي بها فكيف حال الذي يُلقى فيها، وعليه فيلزم -الإنسان عقلاً- اجتناب ما يؤدي به للنار؛ لأنَّه حتى لو لم يتيقن من ذلك، إلّا أنَّه لا يستطيع الجزم بعدم حصول ذلك، فيلزمه -عقلاً- الحذر من فعل ما قد يُعاقب عليه بالنار.

وإمّا أنْ يختار عملاً سيؤدي الى إتيانه آمناً يوم القيامة، وهو أحسن اختيار؛ حيث يكون ملتزِماً بأحكام الله؛ لكونه المُنعِم عليه فشَكَرَ نِعمِهِ، وأطاع ما ألزمه به العقل من شكر المنعم، أو دفع الضرر المحتمل؛ لأنَّه عقلاً أهم من جلب منفعة قطعية.

وهو ما يعني أنَّ العاقل ملزمٌ -عقلاً- بالبحث قبل الرفض، حتى يتأكد بنفسه من وجود الوعد بثواب الطاعة، أو الوعيد بالعقاب على

---

(١) سورة فصلت، الآية ٤٠.

المعصية، ثمّ يقرّر التمـرّد علـى فطرتـه وعقلـه، أو التـدبّر بالآيـات الكونيّة من ظواهر سماوية وكائنات أرضية، مما يتعامل معه حسـيّاً، أو يتعقّله ذهنياً، حيث تحيط بالإنسان مجموعة كثيرة جداً ممّا يصدّق بوجوده لأنَّه قد اختبره بإحدى الحـواس الخمـس، أو قـد تصـوّره بذهنه حتى تعقّله.

وإنَّ كل كائن منها يمثّل دالة توحيديّة، متـاح فهمهـا إذا تأملـها الفرد سيُدرك بعقله استحالة وجودها صدفة، بل أوجدها خالق هذا الكون وصانعه؛ وذلك؛ لأنَّ العشوائية لم تُنتج تصـميماً هندسـياً، أو لوحة فنية، أو منظراً جميلاً، إلّا بنسبة احتمال ضئيلة جداً، لا يعـتني بها العقلاء؛ لضعفها الواضح أمام قوة احتمال عدمها.

وعليه فلا يمكن للعشوائية أو الصدفة أو نحوهما مـن مصـطلحات أنْ توجد كوناً بهذه السعة والامتداد، وضخامة أعداد مخلوقاته، وتنوّع ما تؤدّيه من فعاليّات مهمّة جداً في ديمومة الحياة واستمرارها الكونيّ.

وهي بمجموعها تمثّل صفحات في كتاب الكون المفتوح أمام أنظار المتأملين، بمختلف مستوياتهم؛ من أجل أنْ تُستوفى المحاولات الممكنة لإنقاذ الجميع قبل الوصول الى مرحلة العجز عن العمل، وما يعقبـها من جزاءٍ مماثلٍ للعمل نفسه.

وعلى هذا جاء التحفيز والتحذير؛ إذ قال تعالى: "إنَّ الذين يلحدون في آياتنا"، وهم الذين يميلون عن الحق في أدلتنا، "لا يخفون علينا"؛ حيث يتمّ إحصاء كلّ شيء من أحوالهم.

ثم قال تعالى مستنكراً سوء اختياراتهم: "أفمَنْ يُلقى في النار" جزاءً على معاصيه، "خيرٌ؟، أم مَنْ يأتي آمناً" من عذاب الله؛ جزاءً على معرفته بالله وعمله بالطاعات؟.

ثم قال تعالى: "اعملوا ما شئتم"، وهو أسلوب يتضمّن تهديداً -وإنْ جاء بصورة الأمر-؛ وذلك بسبب موقفهم السلبيّ ومخالفتهم للنهي عن ارتكاب القبائح.

ثم قال: "إنَّه بما تعملون بصير" أي عالم لا يخفى عليه شئ فيجازيكم وفقاً لأفعالكم[(١)].

وكان الظاهر أن يقابل الإلقاء في النار بدخول الجنة، لكنَّه عَدَلَ عنه؛ اعتناءً بشأن المؤمنين؛ لأنَّ الأمن من العذاب أعم وأهم؛ ولذا عبّر في الأول بالإلقاء الدال على القسر والقهر، وفيه بالإتيان الدال على أنَّه بالاختيار والرضا مع الأمن، والآية عامّة في كل كافر ومؤمن[(٢)].

---

(١) ينظر: التبيان، الشيخ الطوسي ٩ / ١٢٩، تفسير الرازي ٢٧ / ١٣٠ - ١٣١.
(٢) ينظر: روح المعاني، الآلوسي ١٢ / ٣٧٨.

النموذج الثالث:

قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[(١)].

فقد بيّن الله تعالى للعباد بأنَّ المتأمل في هذه الآيات المباركات يجد مساقط الضوء على مجموعةٍ من أدلّة التوحيد، وهي:

١. قدرة الله على إحياء الموتى، بل على كل شيء قدير.

٢. خلق الله للسماوات والأرض.

٣. جعل الله للمجانسة بين الذكر والأنثى من الإنسان والحيوان.

٤. انعدام المِثل لله، بل ولا شبيه له.

٥–٨ إنَّ الله هو الولي السميع البصير العليم.

٩. ملكيّة الله للسماوات والأرض والحاكميّة فيهما.

---

(١) سورة الشورى، الآيات ٩ – ١٢.

١٠. بسطُ الله للرزق على الخلق وتقديره لهم وفقاً لموازين حكمة الخالق وما يُصلح الخلق.

وإنَّ جميع هذه الدوالّ التوحيدية تمثّل انعكاسة لبعض مظاهر قدرة الله وعظمته، التي لا نظير لهما، كما تصلح لتقديم لوحة متناسقة لبيان التوحيد؛ إذ قال الله تعالى: "أم اتخذوا من دونه أولياء" أي: بل اتخذ الكافرون من دون الله أولياء من الأصنام والأوثان، يوالونهم" فالله هو الولي" المستحق للولاية في الحقيقة دون غيره؛ لأنَّه مالك النفع والضر "وهو يحي الموتى" أي يبعثهم للجزاء،: وهو على كل شئ قدير" من الإحياء والإماتة وغير ذلك.

"وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه إلى الله" أي: إنَّ الذي تختلفون فيه من أمور دينكم ودنياكم، وتتنازعون فيه، فحكمه إلى الله، فإنَّه الفاصل بين المُحقّ والمُبطل فيه، فيحكم للمحقّ بالثواب والمدح، وللمُبطل بالعقاب والذم،" ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب" أي: إليه أرجع في جميع أموري.

ثم وصف الله نفسه بالصفات الموجبة لعدم عبادة غيره، وأنَّه "فاطر السماوات والأرض" أي: خالقهما ومبدعهما ابتداء، "جعل لكم من أنفسكم أزواجاً" أي أشكالاً، مع كل ذكرٍ أنثى يسكن

إليها ويألفها،" ومن الأنعام أزواجاً" أي: ذكوراً وإناثاً لتكمل منافعكم بها،" يذرؤكم فيه" أي يخلقكم بهذا الوجه الذي ذكر من جعل الأزواج، "ليس كمِثله شئ وهو السميع البصير"، وهو لمّا قد نفى عن نفسه أنْ يكون له نظير وشبيه، بيّن أنه مع ذلك سميع بصير؛ وذلك لأنَّ المدح في أنَّه لا مِثل له مع كونه سميعاً بصيراً لجميع المسموعات والمبصرات، "له مقاليد السماوات والأرض" أي: لديه مفاتيح أرزاق السماوات والأرض وأسبابها، فتمطر السماء بأمره، وتنبت الأرض بإذنه، "يبسط الرزق لمَنْ يشاء ويقدر" أي: يوسّع الرزق لمَنْ يشاء، ويضيّق على مَنْ يشاء على ما يعلمه من مصالح العباد، "إنَّه بكل شيء عليم" فيفعل ذلك بحسب المصالح[١].

النموذج الرابع:

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: (أَنْشَأَ الْخَلْقَ إِنْشَاءً وابْتَدَأَه ابْتِدَاءً، بِلَا رَوِيَّةٍ أَجَالَهَا، ولَا تَجْرِبَةٍ اسْتَفَادَهَا، ولَا حَرَكَةٍ أَحْدَثَهَا، ولَا هَمَامَةِ نَفْسٍ[٢] اضْطَرَبَ فِيهَا.

---

(١) ينظر: مجمع البيان، الشيخ الطبرسي ٩ / ٣٩ – ٤٢، جامع البيان، محمد بن جرير الطبري ٢٥ / ١٥ – ٢٠.

(٢) ولَا هَمَامَةِ نَفْسٍ: أي لم يحصل له همٌّ ولا اهتمام واغتمام بذلك، ينظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢ / ٦١٩.

أَحَالَ الأَشْيَاءَ لأَوْقَاتِهَا، ولأَمَ بَيْنَ مُخْتَلِفَاتِهَا[١]، وغَرَّزَ غَرَائِزَهَا، وأَلْزَمَهَا أَشْبَاحَهَا، عَالِماً بِهَا قَبْلَ ابْتِدَائِهَا، مُحِيطاً بِحُدُودِهَا وانْتِهَائِهَا، عَارِفاً بِقَرَائِنِهَا وأَحْنَائِهَا.

ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَه فَتْقَ الأَجْوَاءِ، وشَقَّ الأَرْجَاءِ، وسَكَائِكَ الْهَوَاءِ[٢])[٣].

فقد تضمّن هذا المقطع من خطبته عليه السلام بياناً لمظاهر قدرة الله تعالى على إنشاء المخلوقات وإخراجها من مرحلة العدم الى مرحلة الوجود الذي يتجلّى فيها الإبداع ودقّة الإيجاد؛ إذ خلق المخلوقات من دون سابق تجربة لأحدٍ ليعتمدها، وإنَّما أعطى الله لكلِّ مخلوقٍ صورة بعدما كوّنه من أشياء مختلفة، قد انتظم بنظام خاص به، حتى أنَّه لا يشاركه غيره من بني جنسه فيه؛ حيث يختص كلٌ بشفرة كونتها إرادة الله تعالى، وفي الوقت ذاته يشترك مع غيره بجينات وراثية قادرة على استقطاب عناصر الالتقاء مع سابقيه من آباء وأمهات وأجداد وجدّات، وهكذا صعوداً حتى جاء الإنسان –بل غيره– في أحسن حال.

---

(١) ولَأَمَ بَيْنَ مُخْتَلِفَاتِهَا: أي جمَعَ بين مختلفات الأشياء، ينظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢ / ٥٣١.

(٢) سَكَائِكَ الْهَوَاءِ: جمع السُّكاكة: الجَوُّ، وهو ما بين السماء والَأرض، ينظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠ / ٤٤١.

(٣) نهج البلاغة ٤٠، خطبة ١.

ولو قُدّر لأحد تغيير جزء بآخر، أو تبديل موقع عضو الى غيره، لعجز عن إحداث تغيير في الإعدادات الأساس ولما تمكّن من الوصول اليها فضلاً عن التلاعب بها؛ لأنَّه سيعتمد إمكانات علميّة داعمة لهذه الخطوات البحثية أو التجريبية، وهي في جميع الأحوال خاضعة لإرادة البشر، الذي هو بطبيعته محدود القدرة والطاقة، ولا يمكنه إلّا التحكّم -نِسبيّاً- بالمظهر، فيُحدث فيه تغييراً من خلال عملية تجميل أو زرع أو نحوهما، لكنَّه سيتوقّف تلقائياً عن تحوير ما عدا المظهر؛ وذلك بسبب انعدام قابليّته على معرفة ما يتصل بالروح وجميع ما يتصل بالإعدادات المختصة بتحريك المخلوق؛ قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

النموذج الخامس:

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّةٍ لولده الإمام الحسن عليه السلام: (لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لأَتَتْكَ رُسُلُه، ولَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِه وسُلْطَانِه، ولَعَرَفْتَ أَفْعَالَه وصِفَاتِه، ولَكِنَّه إِلَه وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَه)[2].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٢) نهج البلاغة ٣٩٦، وصية ٣١.

فقد جاء الاستدلال على التوحيد في هذا المقطع من الوصيّة بأسلوب نفي الشريك لإثبات وجود الله؛ إذ لو كان غيره لعرّف بنفسه، داعياً لاتّباعِهِ، ودالاً على وجوده بآثاره.

ولمّا لم يحصل ذلك كلّه، بما يعني غياب الشريك عن مشهد الوجود، فقد انتفى احتمال وجوده، وثبُتَ أنْ لا إله الا الله؛ لأنَّ ادّعاء شراكته في إيجاد الخلق، لن تدلّل على وجوده، بل تحتاج الى دليل، وهو مفقود؛ إذ لو وُجد الشريك، فهو ممكن وليس بواجب الوجود، بما يعني تساوي احتمال وجوده وعدمه، وهذا ما يتعارض مع وجود الموجودات فعلاً، وهي -بطبيعة الحال- معلولة لعلّةٍ؛ حيث يستحيل وجود شيءٍ بلا علّة.

ومن هنا يُثار السؤال عن هذه العلّة، هل أنَّ وجودها محسوم أم هي ممكنة الوجود والعدم؟، فإذا كانت كذلك فلا يجب وجود معلولها فعلاً.

لكنّه موجود؛ حيث يشاهد ملايين الناس الموجودات ويتعاملون معها في مختلف المواقع بما هي معلولة، فيلزم -عقلاً- وجود علّتها أيضاً؛ وإلّا للزم تأثير المعدوم في الموجود، وهو محال.

ولمّا انتفى احتمال قدرة الشريك على الخلق، فيلزم -عقلاً- كون

علّة وجود الموجودات هو مَنْ أثبت قدرته على إدارة أنظمة الكون الدقيقة، بما حيّر العقول وأدهشها، وكان واجب الوجود، وهو الله دون سواه؛ قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[١].

ويأتي اتباع هذا المنهج القرآني في الحوار، في إطار الاهتمام بعقلنة الاستدلال على التوحيد، وإشراك الآخر في جميع مراحل الحوار؛ لئلا يتوهم أحدٌ أنَّه قد تمّ إقصاؤه، فيستمرّ من موقع المشكّك في الترويج لفكرة قد عجز هو عن إثباتها، ويبحث عن فرصةٍ غيرها، ولا يسعى لعرض تشكيكاته على ثوابت القوانين العلميّة، حتى يتضح له بأنَّ وجود المعلول كاشفٌ عن وجود العلّة، وإلّا فكيف يعقل تأثير العدم في الوجود؟، وهل فاقد الشيء يعطيه؟!.

ويبدو من الضروري للمشكّك أنْ يمنح لنفسه فرصةً للتأمل ويمنعها عن التعجّل؛ حتى يجيب بإنصاف عن مجموعة الأفكار والأسئلة الآتية:

---

(١) سورة فاطر، الآيتان ٤٠ – ٤١.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ * كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[1].

وعلى نسق هذا الحوار الفكريّ، جاء

النموذج السادس:

من محاورة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مع رجلٍ (قال: يا أمير المؤمنين بماذا عرفتَ ربَّك؟.

قال: بفسخ العزم ونقض الهمّ[2]؛ لمّا هممتُ فحِيل بيني وبين همّي،

(١) سورة يونس، الآيات ٣١ – ٣٦.

(٢) الهَمُّ: مَا نَوَاهُ وَأَرَادَهُ وَعَزَمَ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ، ولم يعلن عنه، ينظر: تاج العروس، ١٧ / ٧٦٤.

وعزمتُ فخالَفَ القضاءُ عزمي، علمتُ أن المدبِّر غيري.

قال: فبماذا شكرتَ نعماءَهُ؟.

قال: نظرتُ إلى بلاءٍ قد صرَفَهُ عني وأبلى به غيري[١]، فعلمتُ أنه قد أنعم عليَّ فشكرتُهُ.

قال: فلماذا أحببتَ لقاءَهُ؟.

قال :لمّا رأيتُهُ قد أختار لي دِينَ ملائكته ورسله وأنبيائه، علمتُ أنَّ الذي أكرمني بهذا، ليس ينساني فأحببتُ لقاءَهُ)[٢].

وهو أسلوبٌ علميّ يتدرّج بعرض الحقائق، وفقاً لحاجة الآخر واستعداده الفكري لتلقّيها؛ وذلك من أجل إشاعة ثقافة الحوار المباشر مع الآخر، والحرص على إحاطته بما لا يعرفه عن الحقيقة، فتتم مقاربة التوحيد أو غيره من الموضوعات بطريقة تقترب من الحقيقة، وتبتعد عن إثارة الشبهات التي من شأنها أنْ تعلق في أذهان كثيرٍ من المتلقّين.

---

(١) وأبلى به غيري، أي: حصل لغيري ما لم يحصل لي، وليس المراد بأنَّ ما ابتلى به غيري هو ما كان متوجهاً عليَّ؛ إذ يتعارض هذا الفهم للنص مع الاعتقاد بحكمة الله وعدله، بل لأنَّ البلاء ممّا يتوقعه العباد، فالعاقل يشكر الله تعالى إذا رأى مريضاً -مثلاً-؛ لعلمه بأنَّه شخصياً أيضاً معرَّضٌ للمرض، فلمّا تجاوز الحالة، لزمه شكر المنعم بالعافية عليه.

(٢) التوحيد، الشيخ الصدوق ٢٨٨، رقم ٦.

النموذج السابع:

إجابة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن سؤال رجلٍ (قَالَ لَه: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ صِفْ لَنَا رَبَّنَا مِثْلَ مَا نَرَاه عِيَاناً؛ لِنَزْدَادَ لَه حُبّاً وبِه مَعْرِفَةً.

-فجاء الوصف بالآتي:-

ابْتَدَعَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ امْتَثَلَه، ولَا مِقْدَارٍ احْتَذَى عَلَيْه مِنْ خَالِقٍ مَعْبُودٍ كَانَ قَبْلَه، وأَرَانَا مِنْ مَلَكُوتِ قُدْرَتِه، وعَجَائِبِ مَا نَطَقَتْ بِه آثَارُ حِكْمَتِه، واعْتِرَافِ الْحَاجَةِ مِنَ الْخَلْقِ إِلَى أَنْ يُقِيمَهَا بِمِسَاكِ قُوَّتِه، مَا دَلَّنَا بِاضْطِرَارِ قِيَامِ الْحُجَّةِ لَه عَلَى مَعْرِفَتِه.

فَظَهَرَتِ الْبَدَائِعُ الَّتِي أَحْدَثَتْهَا آثَارُ صَنْعَتِه وأَعْلَامُ حِكْمَتِه، فَصَارَ كُلُّ مَا خَلَقَ حُجَّةً لَه ودَلِيلاً عَلَيْه، وإِنْ كَانَ خَلْقاً صَامِتاً، فَحُجَّتُه بِالتَّدْبِيرِ نَاطِقَةٌ، ودَلَالَتُه عَلَى الْمُبْدِعِ قَائِمَةٌ)[1]؛ وبذا يشتمل هذا الوصف للربِّ تعالى على وسائل توضيحيّة عدّة في الجواب؛ إيماناً من الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بعجز أسلوب إملاء القناعات عن إثبات المطلوب، وإنَّه لا خيار سوى سلاسة البيان وقوة البرهان؛ حتى يساعدا على جلاء الحقيقة للآخر، فيقتنع بعدم تقاطع منظومة الدين مع تحديث الأسلوب وتجديده، ما دامت الأسس محفوظة؛ إذ

(١) نهج البلاغة ١٢٤، ١٢٦، الخطبة ٩١.

لا مانع من استعمال العلوم الأمينة على المجتمع، الصديقة لأفراده، والاستعانة بها على إخراج الفكرة وتقريبها للمتلقّين؛ فقد (أَبى اللَّه أَنْ يُجْرِيَ الأشَيَاءَ إلّاَ بأِسْبَابٍ، فَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَباً)[1].

ومن الأسباب: تفنّن الإنسان في الأسلوب، وتوظيفه لآليات معاصرة عند البيان، بما يوثّق عمق الارتباط الأصيل بين ظواهر الكون ومظاهر القدرة فيه.

وعليه فلا يتضمّن الإيمانُ بوجودِ الله دعوةً الى تعطيل قوانين الأشياء وخصائصها الفيزيائية والكيميائية والرياضية وغيرها مما أودعه الله تعالى بقدرته في مخلوقاته؛ لحفظ توازنات الطبيعة، وليفيد منها الإنسان في سعيه الدنيوي وما بعده؛ فيزداد رصيده العلميّ، وينتفع ممّا خلَقَهُ الله وأودعه هذه الخصائص.

فعلى الإنسان ألّا يوظّف الدنيا في قطع علاقته مع خالقها، بل يعيش فيها عارفاً بأنّها محطة لما بعدها، وأنَّ رحلة الإنسان لن تتوقف، بل عليه المواصلة حتى يطلع على سجل أعماله ويُجزى عليها.

فكان لا بدّ له من استثمار وجوده الدنيوي للسعي في تحصيل الرزق لإشباع حاجة الجسد، كما عليه أيضاً إشباع حاجة الروح

---

(١) الكافي، الشيخ الكليني ١ / ١٨٣، ح ٧.

والاطلاع على الاطروحات العلميّة الرصينة القادرة على تقديم إجابات مُقنِعة، فيُحصِّن نفسه من اختراق الشبهات الفكريّة، التي تُنسيه وجود أدلّة عقليّة فطريّة على التوحيد، وتسلّط الأضواء على بعض ما خَلَقَه وأتاحه لانتفاع الخلق -كلّ الخلق-؛ ليكون إيمان الإنسان بالله عن وعيٍ وتأمل فيما ينزل من السماء من ماء، وما يُحدثه من عمليّات الريّ متنوعة الأغراض والفوائد، وما يسبقها في الأرض من عمليّة تبخر للماء ثمّ عمليّة خزن في السُحب والغيوم.

وكذلك سيجد الإنسان من دلائل وجود الله تعالى، ما خلَقَهُ من جمادات في الأرض، كالحَجَرِ بأشكاله وأنواعه ومنافعه بما يديم حركة البناء، فتتشكّل المدن بتجمعاتها السكانيّة، وكما لا توجد هذه التجمّعات بنفسها، بل بتظافر عوامل عدّة من الهندسة والتنفيذ وغيرهما من فعاليّات عاملة في إنجاز ذلك، كذلك لم يوجد هذا الكون بنفسه، وإنَّما أوجده الله سبحانه.

وهكذا يستدلّ الإنسان على وجود الخالق، بما يشاهده عند تنقّله بين البلدان وما ينتفع به من شبكات البَر والبحر والجو، وأدوارها في تحقيق انسيابيّة حركة النقل والتجارة وما تحدثه من تعدّديّة مراكزهما، بما تتكاثر معه فرص العمل، وتتزايد رءوس الأموال، وتزدهر البقاع، فتكون السياحة بما لها من فوائد للعباد والبلاد.

ومن فوائدها تمتّع الإنسان بما خلَقَهُ الله من جمال الطبيعة، وما يمكنه توظيفه من خلال مشاهداته للمناظر الجاذبة للانتباه، وما توفره للعباد من منافع بيئية واقتصادية وغيرهما مما يشكِّل عناصر استقطاب سياحيّة، من اختلاف ألوان أجناس الناس ولغاتهم وهواياتهم، وانعكاس ذلك إيجاباً على التكامل البشري وتنوع مصادر الثقافة والتراث الحضاري.

وغير ذلك ممّا خَلَقَه الله من حيوان أو نبات أو جبال، وأدوارها المشهودة في استمرار الحياة على الأرض، وما تُحدثه من توازنات عدّة، وما تجتذبه من مصادر تمويلٍ لفرص الاستثمار والإعمار، وهو ما يبعث على تحسين الاقتصاد، وتحقيق الاستقرار.



خاتمة

خاتمة

والمأمول بعد هذه الرحلــة الفكريــة مــع التوحيــد في ضــوء نهــج البلاغة، أنْ تكون عاملاً مساعداً في تبيين معالم التوحيد للمتلقّي، مــن خلال هذه النصوص المختارة، وما قدّمتــه مــن أدلّــة علميّــة، عقليّــة وتجريبيّة غير مباشرة؛ اعتماداً على الآثار الحسيّة لوجود الله تعالى.

فقد كانت محاولة جادّة لقراءة التوحيــد بعقلانيتــه الفطريــة، ممــا أثبتت فاعليّة هذا النمط من الاستدلال على التوحيد، وقدرته علــى إسناد المتلقّي بقاعدة بيانات، لتوضيح المفهوم والمدلول.

فكانت قراءة التوحيد في رحاب نهج البلاغة والرؤى المعاصرة:

١. متوافقة مع مخرجات العقل والفطرة والمنطــق ومعطياتهــا بهــذا الشأن، وكانت لها القدرة على استيعاب مختلــف الشــرائح واجتــذابهم للإصغاء لهذا البيان العربي المبين، المتناسق مع مناهج التفكير الإنساني؛ حيث عالج الإمام أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام موضوعة التوحيــد بعمــق، وقارَبَ تفاصيلها بموضوعيّة، محافظاً على رصانة التعــبير، في تكــوينٍ جُمليٍ متين، حتى عرضها عليه السلام ميسّرة على أفهــام المهــتمّين بقضــايا

الحياة والدين، فأتاح لهم فهماً حيوياً للتوحيد، مؤطراً باستدلالٍ عقليٍ وجداني، بما يشدّهم للتحاور في المفاهيم العقدية.

وهذه إحدى ضرورات المرحلة؛ حيث يلزم الاهتمام بإعداد بعض شرائح المجتمع من خلال إشراكهم في برامج فكريّة وثقافيّة، بخطاب علميّ ميسّر يفهمه جميع المستويات، فيطلعوا على قضايا العقيدة وغيرها من مسائل فكريّة، ويستوعبوا مفاهيمها ومصطلحاتها، ويتعاملوا عن قرب مع طبيعة بحوثها التي تتطلّب جهداً مناسباً في عرضها وتلقّيها.

٢. قادرة على تحديد أولويّات الخطاب؛ إذ تمّ تنويع العروض في معالجة موضوعات المعرفة المختلفة، مع مراعاة مقتضيات الأحوال، والجمع بين التدرّج الذهني والترقي العلمي؛ وذلك بسبب تعدديّة مستويات المتلقّين في مختلف الزمان والمكان، فبادَرَ الإمام علي عليه السلام الى تطويع مفردات النصوص، حتى يتمّ تبيين المعلومة بأوضح أسلوب ممكن.

وما هذه القدرة البيانيّة، إلّا لوضوح الرؤية لديه عليه السلام في تحديد المشكلة وعلاجها، بلا استعانة بالمصطلحات الصِرفة، أو تعقيد الاستعمال والتركيب، وإنّما باستحضار البراهين الفطريّة القريبة من الجميع، فكان أنْ نجحت نصوص «نهج البلاغة»، في اقتدارها على معالجة قضايا فكريّة عدّة.

٣. مبادرة بتقديم ورقة عملٍ للنهوض بالمسئوليّة الإنسانيّة والشرعيّة في تصحيح المسار، وتطويق المشكلة، مما يسبّبه نقص المناعة الفكريّة، وأزمة فهم النصوص الدينية، وسوء تحليل القضايا المعرفيّة الدقيقة.

فكانت مبادرة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ذات حلول ديناميكية، في مواكبة الحدث، ومعايشة المناخ، مما أكسبها حضوراً مؤثراً في المشهد العام؛ عند تشابه الأفكار، واختلاف الآراء؛ كما تدلّل عليه هذه القراءة التوحيدية الواعية؛ لنجاحها في تجذير المفاهيم، وتعميق الاعتقاد بالتوحيد، عبر سياقات الاستدلال العلمي، والبرهنة على القضايا، بما يؤدي الى اليقين بوجود الإله واجب الوجود، بدون تقليد أحدٍ، أو تأثرٍ بجوٍّ معيّن، وإنما بالبرهان.

٤. مقنّنة لتقييم الأفكار ونقدها بالدليل العلمي، وتحديث طرق إثبات الحقائق، بما يوصلها ويتيح فهمها لأكثر عدد؛ حفظاً لهم من الشبهات، التي قد تتسبب انفعالات شخصية وأزمات مجتمعيّة في حدوثها، بعدما كانت علامات استفهام حول قضايا جوهريّة مثل: أصل العالَم، وجود الخالق، حريّة الإرادة، خلود الروح.

لكن حيث عجز المُشكك عن تفسيرها؛ إذ لم يتفاعل مع دلائل

وجود الخالق، أو لجأ لفهمٍ علميٍ متطرّفٍ في تلك القضايا، رافضاً الاستماع لخطاب الدين والتأمل في براهينه؛ مستمعاً للأطروحة الأخرى، متناسياً أنَّ للمعرفة جانبين، ماديّ ومعنويّ، فلا يصح التفكيك بينهما؛ إذ لا يؤدي أحدُهما دورَ الآخر، بل (إنَّ الشعور بثنائية الجسد والروح، أمرٌ فطريٌ مزروعٌ فينا منذ ولادتنا)[١].

و(أنَّ رموزنا لها من التأثير علينا بحيث إذا ما فقدناها نشعر باضطراب في أنفسنا قد لا يكون له بديل جاهز)[٢]؛ فالإنسان وغيره من الكائنات، روح وجسد وإلّا فكيف أدرك الإنسان الحقائق الكونيّة؟!، مع أنّه لا يحسّها بحواسه الخمس، وإنما يدركها بعقله، وكيف له أنْ يُثبت ما يحسّ به من أحاسيس ومشاعر ووجدانيات؟!، لو لم تكن الروح جزء من تركيبته؟، بل كيف لم يناقش بوجود اللامتناهي في الرياضيّات، لكنه يمتنع عن الإيمان بما وراء المادة؟!، مع أنّهما معاً غير متناه، ولا يحسه الإنسان بحواسه، وإنّما يتصوره بذهنه، ممّا يدلّ على وجود شيء سوى المادة؟!.

(١) ينظر: رحلة عقل ١٩٢، نقلًا عن مايكل شيرمر (١٩٥٤ م...) أمريكي، أستاذ الاقتصاد بجامعة كلاريمونت، مهتمٌ بالفلسفة والعلوم، من تيار الشكوكية العلميّة.

(٢) الصراع من أجل الإيمان، جيفري لانغ بروفيسور الرياضيات الأمريكي (١٩٥٤م...) ٣٦٠، دار الفكر–دمشق، ط: الثانية ٢٠٠٠ م.

كما يدلّ على انتقائيّة الإنسان في المعايير والأحكـام -أحيانـاً-، وهي صفة الذين يرفضـون معطيـات الأدلّـة، ويقـدّمون أفكـاراً لا تنسجم مع البراهين الكونيّة على وجود الله سبحانه.

لكن ما زال الأمـل منعقـداً في قـدرتهم علـى اسـتبدال الـرفض بالانفتاح على التوحيد في رحاب نهج البلاغـة؛ لمـا في "النـهج" مـن منهجٍ معرفيٍّ يحفظ للأجيال بياناتهم الفطريّة التي اكتسبوها بالوجـدان، ولما يتأكد بانفتاحهم الفكريّ هذا من اهتمامهم بمعرفة الحقائق -فعـلاً-، وأنَّهم ليسوا ممَّنْ يكتفي بإبداء رأيه، ولا يمنح للآخر حريّته في ذلك.

وسيجدوا في "نهج البلاغة" حثاً على التفكّر في البرهان الكـوني، ومحاولة استنطاقه للوصـول الى إثبـات خالقـه ومكوّنـه؛ لأنَّ هـذا البرهان عقليّ فطريّ، ولا تبطله منـاورة أحـدٍ بتضـعيف نـصٍ، أو تشكيكٍ بدلالةٍ.

٥. مشاركة في إثراء مشروع التنمية الفكريّة المستدامة، بالبرهنـة على التوحيد، بما يوسِّـع خيـارات المتلقّـي، ويسـاعده علـى فهـم التوحيد كمفهومٍ أصيل، بعيداً عن إتهام أحدٍ بالشرك.

كما يساعد الإنسـان علـى تصـحيح بعـض معلوماتـه؛ فمـثلاً: (يتصوّر علماء الفلك اليوم إنَّ أول نشوء الكون كان نتيجـة انفجـار

كبير شاع منه دخان مؤلف من دقائق ناعمة، وساد عندها في الكون سكون وظلام دامس، ثم بدأت الذرات تتجمع في مناطق معينة مشكِّلة أجراماً، ما لبثت أن بدأت فيها التفاعلات النووية، التي جعلت هذه الاجرام نجوماً مضيئةً.

وفي قول الإمام علي عليه السلام: " فَالْتَحَمَتْ عُرَى أَشْرَاجِهَا"[١]، تشبيهٌ لنجوم المجرّة بالحلقات المرتبطة ببعضها بوشاح الجاذبية والتأثير المتبادل، وبعد نشوء النجوم الملتهبة الدائرة، بدأت تقذف بالحمم التي شكّلت الكواكب السيّارة كالأرض وغيرها، وهو ما عبّر عنه الإمام علي عليه السلام بالفتق بعد الارتتاق؛ في قوله: "وفَتَقَ بَعْدَ الِارْتِتَاقِ صَوَامِتَ أَبْوَابِهَا"[٢].

وأيضاً يشير الإمام علي عليه السلام بقوله: "وأَقَامَ رَصَداً مِنَ الشُّهُبِ الثَّوَاقِبِ عَلَى نِقَابِهَا"[٣] إلى ما أثبته العلم الحديث من أنَّ الشُهب تغذي بعض أجرام الكواكب بما نظّمه لها من التفاتق، فما نقب وخرق من جرمٍ عُوِّضَ بالشهاب)[٤].

(١) نهج البلاغة ١٢٨، خطبة ٩١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ينظر: تصنيف نهج البلاغة، لبيب بيضون ٧٧٩ - ٧٨٠.

وبذلك يكون الإمام علي عليه السلام داعياً الى ترسيخ ثقافة التكامل المعرفيّ في ضوء قراءة متأملة للمشهد ومعطياته، واستنطاق الأدلّة، وتوظيف الطاقات، عبر مقاربة فكرية رصينة، تساعد على تنقية الفضاء العام من شوائب التشكيك، وتستنقذ المتورّطين، وتعيدهم الى صفاء الفطرة.

(إنَّ المزية التي امتاز بها عليٌّ بين فقهاء الإسلام في عصره أنه جعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمل، ولم يقصره على العبادة وإجراء الأحكام، فإذا عُرِفَ في عصره أناسٌ فقهوا في الدين؛ ليصححوا عباداته، ويستنبطوا منه أقضيته وأحكامه، فقد امتاز عليٌّ بالفقه الذي يُراد به الفكر المحض والدراسة الخالصة، وأمعن فيه ليغوص في أعماقه على الحقيقة العلمية)[1].

وكفى لعليٍّ عليه السلام أنّه (لقد ولد -كما علمنا- في الكعبة، وضُرِبَ -كما علمنا- في المسجد، فأيّة بداية ونهاية أشبه بالحياة التي بينهما من تلك البداية وتلك النهاية؟!)[2].

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[3].

(١) عبقرية الإمام علي، عباس محمود العقاد ٢٩.

(٢) المصدر نفسه ١٣١.

(٣) سورة هود، من الآية ٨٨.

المصادر

١. القرآن الكريم.

٢. أحكام القرآن، الجصاص، دار الكتب العلمية-بيروت ١٤١٥ هـ-١٩٩٤ م.

٣. إرشاد الطالبين الى نهج المسترشدين، المقداد السيوري، منشورات مكتبة السيد المرعشي النجفي- قم.

٤. الإشارات والتنبيهات، أبو علي ابن سينا، نشر البلاغة- قم ١٣٨٣ شمسي.

٥. الإلحاد مشكلة نفسية، د. عمرو شريف، نشر: نيو بوك-القاهرة ٢٠١٦ م.

٦. الإلحاد في الغرب، د. رمسيس عوض، سينا للنشر – القاهرة ١٩٩٧ م.

٧. الله لا يرمي بالنرد، محمود علّام، دار الميدان.

٨. الأمالي، الشيخ الطوسي، دار الثقافة-قم ١٤١٤هـ .

٩. الأمالي، الشريف المرتضى، مطبعة السعادة- مصر، ط: الأولى ١٣٢٥ هـ-١٩٠٧م، منشورات مكتبة السيد المرعشي النجفي- قم ١٤٠٣هـ .

١٠. الإمام الصادق عليه السلام والتنظير للتنمية البشرية، محمد صادق السيد محمد رضا الخرسان، ط: الخامسة، دار البذرة-النجف الأشرف ١٤٣٨هـ ٢٠١٧ م.
١١. الإمام علي أسدُ الإسلامِ وقديسُهُ، روكس بن زائد العزيزي، دار الكتاب العربي-بيروت ١٣٩٩ هـ .
١٢. الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، جورج جرداق، نشر: طليعة النور ١٤٢٥هـ .
١٣. الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر، راجي أنور هيفا، دار العلوم-بيروت ٢٠٠٧ م.
١٤. بحار الأنوار، العلامة المجلسي، دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ م.
١٥. تاج العروس، الزبيدي، دار الفكر ١٩٩٤ م.
١٦. التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي، مكتب الإعلام الإسلامي ١٤٠٩هـ .
١٧. تصنيف نهج البلاغة، لبيب بيضون، مكتب الإعلام الإسلامي ١٤٠٨هـ ط: الثانية.
١٨. تفسير الرازي، ط: ٣.
١٩. تفسير النسفي، دار الكلم الطيّب – دمشق، ط: ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٢٠. تقريرُ التنميةِ الإنسانيةِ العربيةِ، الصادرِ عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي لعام ٢٠٠٢ م.

٢١. التوحيد، الشيخ الصدوق، مؤسسة النشر الإسلامي -قم.

٢٢. جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، دار الفكر -بيروت ١٤١٥هـ-١٩٩٥ م.

٢٣. الجديد في الانتخاب الطبيعي، ريتشارد دوكينز، ترجمة: د. مصطفى إبراهيم فهمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢٤. جمهرة اللغة، ابن دريد، دار صادر.

٢٥. الجينة الأنانيّة، ريتشارد دوكينز، ترجمة: تانيا ناجيا، دار الساقي -بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م.

٢٦. خرافة الإلحاد، د. عمرو شريف، ط: ٨، ٢٠١٧م، نور للنشر والتوزيع.

٢٧. الخصال، الشيخ الصدوق، مؤسسة النشر الإسلامي -قم ١٤٠٣هـ .

٢٨. خواطر، بليز باسكال، ترجمه للعربية أدوار البستاني. اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع بيروت ١٩٧٢ م، توزيع المكتبة الشرقية ١٩٨٢م، بيروت.

٢٩. دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، دار الفكر- بيروت ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

٣٠. الدين والإسلام، الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، (موسوعة الإمام محمد الحسين آل كاشف الغطاء، الآثار الكلامية)، مركز إحياء التراث الإسلامي، طهران ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨ م.

٣١. الذريعة، الشيخ آغا بزرك الطهراني، دار الأضواء-بيروت ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣ م.

٣٢. رحلة عقل، د. عمرو شريف، نيو بوك-القاهرة، ط: العاشرة ٢٠١٧م.

٣٣. رحلتي من الشك الى الإيمان، د. مصطفى محمود، دار المعارف بمصر ١٩٧٠ م.

٣٤. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ) تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ .

٣٥. الرسائل العشر، الشيخ الطوسي، مؤسسة النشر الإسلامي-قم.

٣٦. رسالة في التسامح، جون لوك، ترجمة منى أبو سنه، المجلس الأعلى للثقافة-مصر ١٩٩٧ م.

٣٧. شرح المصطلحات الكلاميّة، إعداد قسم الكلام في مجمع البحوث الإسلاميّة-مشهد ١٤١٥هـ .

٣٨. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٨ هـ-١٩٥٩ م.
٣٩. الشواهد الربوبية، صدر الدين محمد الشيرازي، نشر: ستاد انقلاب فرهنگي.
٤٠. الصحاح، أسماعيل بن حماد الجوهري، دار العلم-بيروت ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧ م.
٤١. الصراع من أجل الإيمان، جيفري لانغ، دار الفكر-دمشق، ط: الثانية ٢٠٠٠ م.
٤٢. عبقرية الإمام علي، عباس محمود العقاد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة – القاهرة ٢٠١٢م.
٤٣. العلم والحقيقة، ريتشارد دوكينز، ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي، المجلس الأعلى للثقافة-القاهرة ٢٠٠٥ م.
٤٤. العلم يدعو للإيمان، آريسي موريسون، ترجمة: محمود صالح الفلكي، بلا معلومات.
٤٥. علوم الطبيعة في نهج البلاغة، لبيب بيضون، بلا معلومات.
٤٦. العلوم الطبيعيّة، مجموعة مؤلفين، دار المسيرة.
٤٧. العين، الفراهيدي، مؤسسة دار الهجرة ١٤٠٩هـ.
٤٨. عيون المواعظ والحِكَم، علي بن محمد الليثي الواسطي، دار الحديث.

٤٩. الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، مؤسسة النشر الإسلامي -قم ١٤١٢هـ .

٥٠. الفلك (موسوعة ومضات اعجازية)، خالد فائق العبيدي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية-بيروت ١٤٢٦ هـ-٢٠٠٥ م

٥١. في خُطى علي، نصري سلهب، دار الكتاب اللبناني، ط: الأولى ١٩٧٣ م.

٥٢. الكافي، الشيخ الكليني، دار الكتب الإسلامية-طهران، ط: الثالثة ١٣٨٨ هـ .

٥٣. الكشاف، الزمخشري، مطبعة مصطفى البابي-مصر ١٣٨٥ هـ-١٩٦٦ م.

٥٤. الكشف عن مناهج الأدلّة في عقائد الملّة، محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٨ م.

٥٥. كشف المراد، العلّامة الحلي، مؤسسة نشر الإسلامي-قم ١٤١٧هـ .

٥٦. كيف بدأ الخلق، د. عمرو شريف، ط:٥، مكتبة الشروق الدولية ١٤٣٧هـ-٢٠١٦م.

٥٧. لسان العرب، ابن منظور، نشر: أدب الحوزة-قم ١٤٠٥هـ .

٥٨. لسان الميزان، ابن حجر، مؤسسة الأعلمي-بيروت، ط: الثانية ١٣٩٠ هـ-١٩٧١ م.

٥٩. لغة الإله، فرانسيس كولنز، ترجمة: د. صلاح الفضلي، ط: الأولى -الكويت ٢٠١٦ م.

٦٠. اللاهوت المعاصر، مجموعة مؤلفين، نشر المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية ٢٠١٧ م.

٦١. مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، مؤسسة الأعلمي -بيروت ١٤١٥هـ-١٩٩٥ م.

٦٢. المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، دار الكتاب العربي.

٦٣. مسند أحمد، دار صادر-بيروت.

٦٤. مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي، مؤسسة فقه الشيعة - بيروت ١٤١١هـ - ١٩٩١ م.

٦٥. المعجزة الخالدة، السيد هبة الدين الشهرستاني، ط: الثانية.

٦٦. معجم لغة الفقهاء، محمد قلعجي، دار النفائس-بيروت، ط: الثانية ١٤٠٨هـ-١٩٨٨ م.

٦٧. المعلوماتيّة برهان الربوبيّة الأكبر، د. عمرو شريف، نيو بوك للنشر - القاهرة ٢٠١٨م.

٦٨. مفهوم الألوهية في فلسفة ريتشارد سوين بيرون، عماد الدين إبراهيم عبد الرزاق، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الرباط -المملكة المغربية.

٦٩. مقاييس اللغة، ابن فارس، نشر: مكتب الإعلام الإسلامي ١٤٠٤هـ .

٧٠. مناقب الأسد الغالب علي بن أبي طالب، شمس الدين محمد بن الجزري، دار الكتب العلمية-بيروت ٢٠٠٥ م.

٧١. المنطق، الشيخ محمد رضا المظفر، مؤسسة النشر الإسلامي-قم.

٧٢. المنظار الهندسي للقرآن الكريم، د. خالد فائق العبيدي، دار المسيرة – عمّان ٢٠٠٩م – ١٤٢٩هـ .

٧٣. موسوعة الفلسفة، ماركوس ويكس، المستشار: ستيفن لو، شركة المستقبل الرقمي.

٧٤. موقع الموسوعة البريطانية https://www.britannica.com/science/uncertainty-principle.

٧٥. الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة النشر الإسلامي-قم.

٧٦. نظرات في القرآن، الشيخ محمد الغزالي، نهضة مصر، ط: السادسة ٢٠٠٥ م.

٧٧. نهاية الحكمة، السيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة النشر الإسلامي-قم ١٤١٧هـ، ط: ١٤.

٧٨. نهاية حُلم وهم الإله، د. أيمن المصري، مؤسسة الدليل ٢٠١٧م.

٧٩. نهج البلاغة، الشريف الرضي، تحقيق صبحي الصالح، دار الكتاب اللبناني–بيروت ١٣٨٧ هـ–١٩٦٧ م.

٨٠. نهج الحق وكشف الصدق، العلامة الحلي، دار الهجرة–قم ١٤٢١هـ .

٨١. هكذا عرفتهم، جعفر الخليلي، مطابع الدستور التجارية–عَمّان ١٩٩٣ م.

٨٢. هناك إله، أنتوني فلو، ترجمة: د. صلاح الفضلي، ١٩٦، ط ٢، ١٤٣٨هـ .

٨٣. وهم الإله، ريتشارد دوكينز، ترجمة بسام البغدادي، الطبعة العربية الثانية.